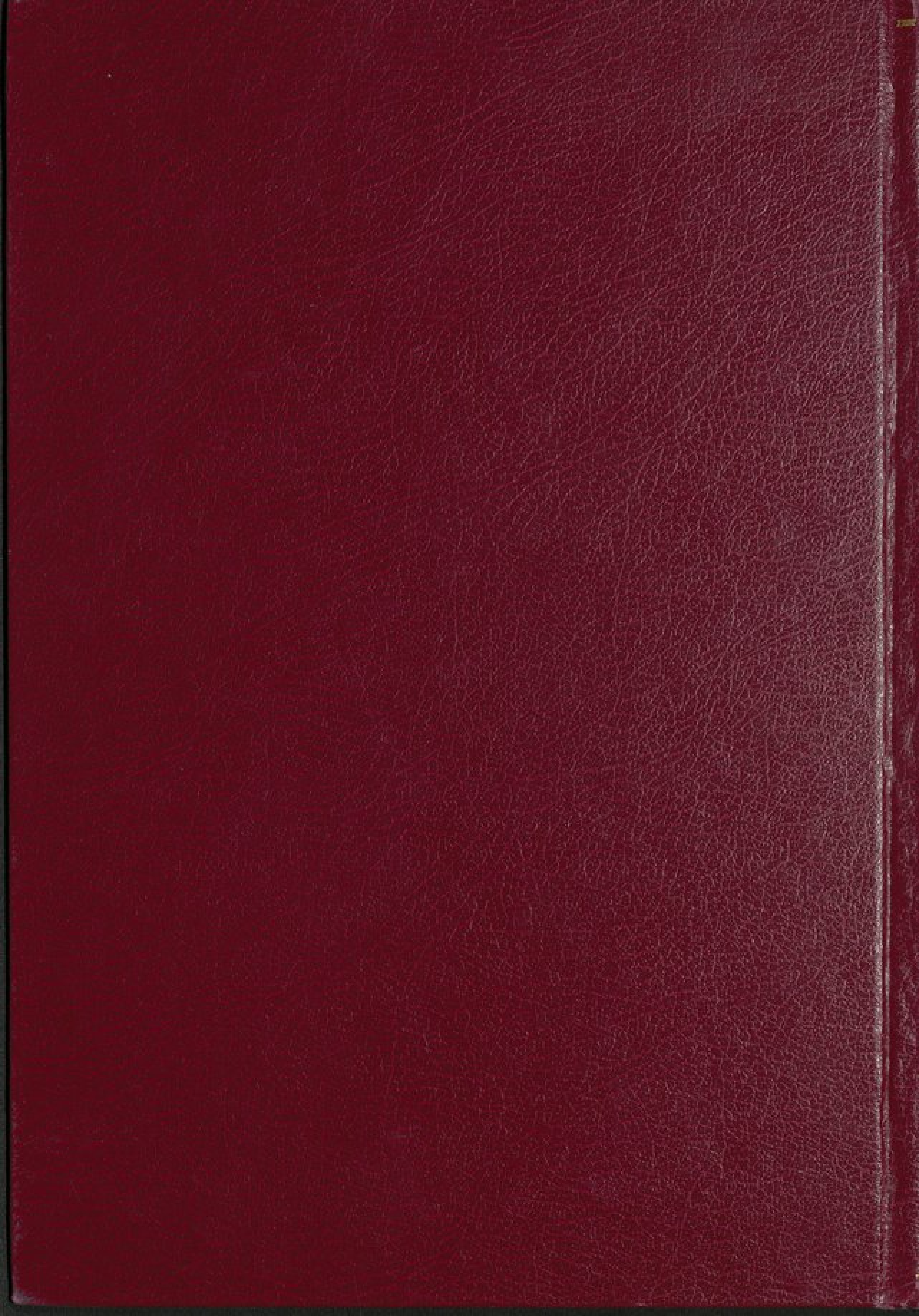
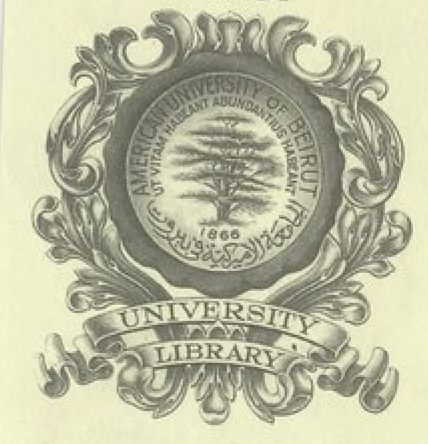
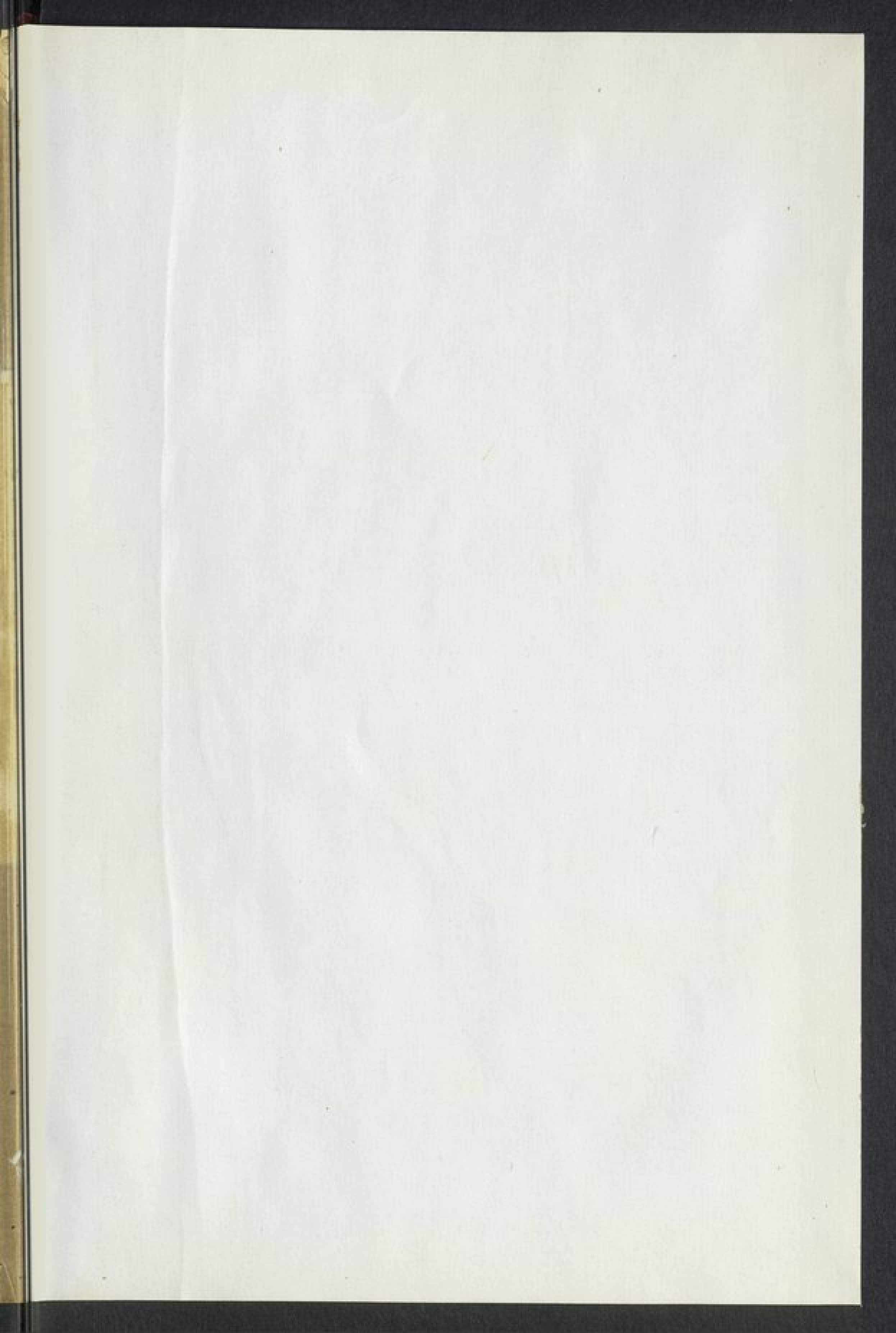



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY



دفاع سقراط

لأفلاطون

عرّبه عن اليونانية

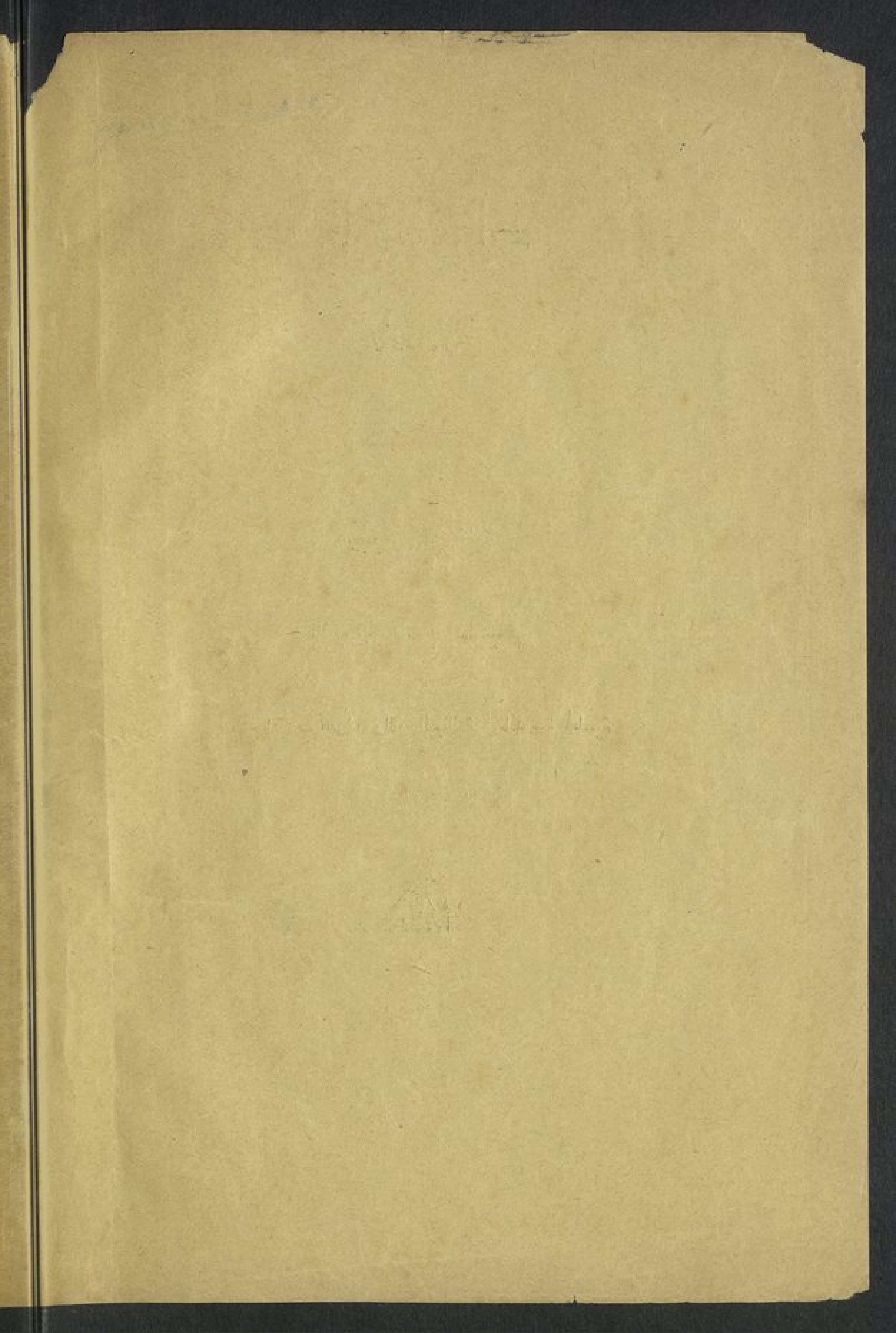
الاب ايزيدور ابو حنا ب م

استاذ الأدب العربي واللغة اليونانية في المدرسة المخلصية

دير المخلص – صيدا



١٩٤٠



دفاع سقراط

لأفلاطون

عرّبه عن اليونانية

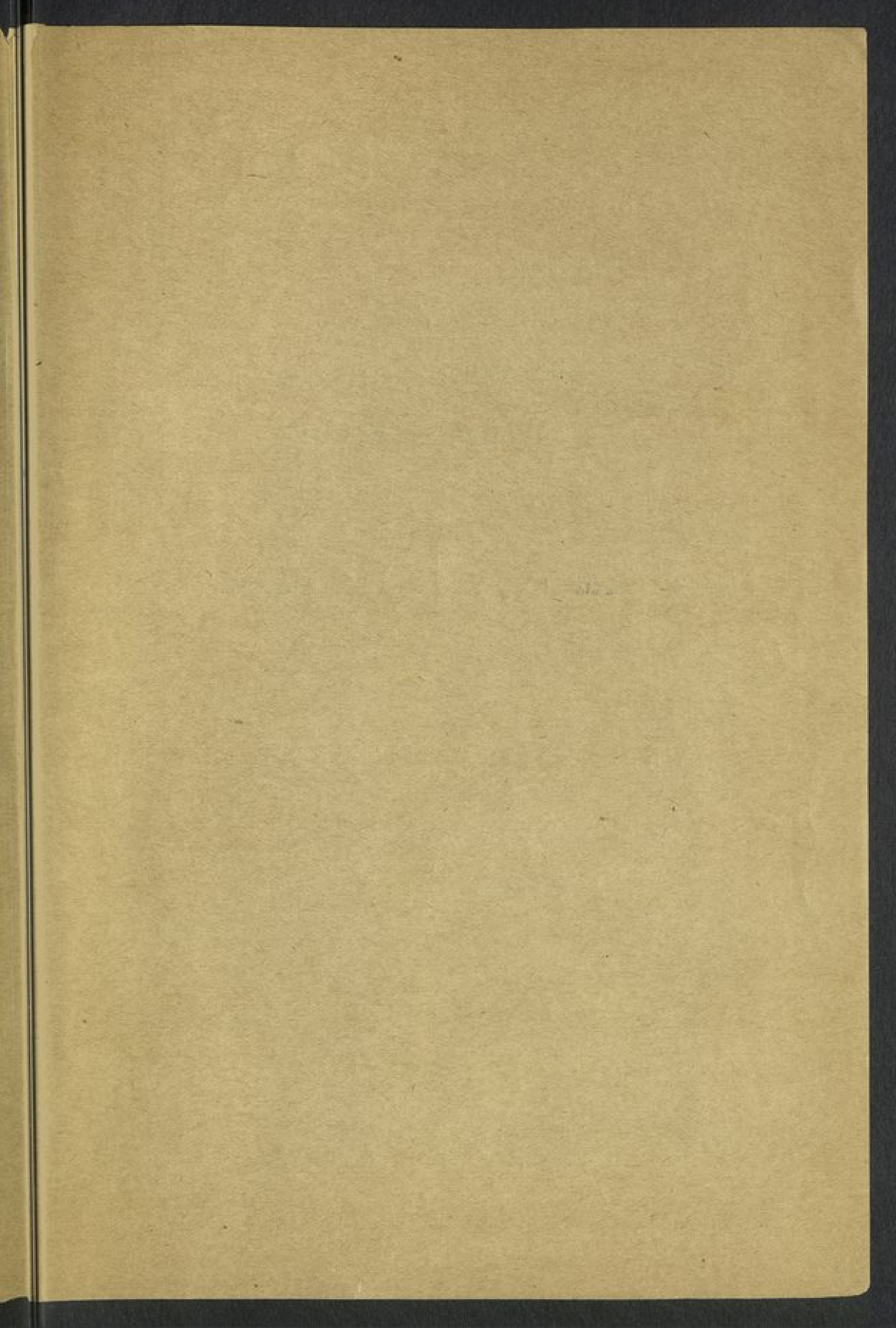
الاب ايزيدور ابو حنا ب م

استاذ الأدب العربي واللغة اليونانية في المدرسة المخلصية

دير المخلص – صيدا



١٩٤٠



دفاع سقراط

بيان

اشد ما في هذه الحياة استبداد الظلم باهل الاستقامة والوداعة ، واقبح ما تراه العين حيرة الفضيلة يوم تقف عند ابواب القوة ، ضعيفة ، محتقرة ، مظلومة . وما اشبه وقفة سقراط امام القضاة، بوقفة السيد المسيح امام بيلاطس، ليحاسب على بره واحسانه الى بني وطنه !

ان سقراط لأعظم اثيني تقوى وعلماً واحتراماً لشرائع الدولة ، وغيرة في الجهاد والذود عن الوطن ، وهو الذي هذّب الاثينيين وانزل عليهم الحكمة من سماء عقله ؛ ومع هذا فسقراط يُتَّهم، ويشكى ، ويقضى عليه ان يموت بالسُّم ظلماً واستبداداً ، بينما الف كافر ، وعاهر، وخائن، يعيشون في ظلال الجمهورية بكرامة ومجد، ونِعمة عيش. وكأنَّ هذا ما شكّكَ الشاعر مِيندر واثار حنقه على الانسانية فقال : « لو اتاني الاه وقال: انك اذا ما متَّ فستبعث حياً ، ولك الخيار ان تكون ما شئت، كلباً او كبشاً، او تيساً ، او انساناً ، او جواداً ، اذ لا بد لك ان تحيا حياتين، اذن لأجبته : الا كلَّ شيء ما خلا ان اكون انساناً ! ان الانسان لهو وحده الحيوان الذي لا يعرف العدل في سعادته ، ولا في شقائه . »

فلقد غلا الشاعر في سخطه ، وعمَّمَ في حكمه ؛ فلم يغشَ الظلمُ وجهَ الارض كلها ، ولم تكن ذراع القوة دوماً هي شريعة العدل ، فقد وجد جمٌ من « الملوك يدرون ان الآلهة ليست بعيدة، لانها تسكن بين الناس مفتوحة العيون، لترقب الظالمين الاشرار ، الساعين الى سحق اشباههم باحكام جائرة » كما يقول هزيود . وقد قام غير حاكم ، وزعيم ، ومصلح يعملون بقول تيرنس « انني انسان فكل ما يعني الانسانية يعنيني » فجاهدوا عن الحق ، ودافعوا عن الفضيلة المظلومة .

على ان هذه الحياة الدنيا انما هي مَيدان يعترك فيه الخير والشر ، وكلٌّ له اعوانه ؛

فقد ينتصر اهل الخير، ولشد ما يكون الغلب لاهل الشر، إلا أن سلطانهم ينحصر بين عدمين، بين طلوع الحياة وغروبها . اما اهل الخير فرجاؤهم عظيم في الله، وفي الخيرات الابدية، ونظرهم ابعد من ان يقف عند هذه الآفاق الضيقة؛ فهم النسور القوية التي تخترق طبقات الهواء لتفتتح عوالم جديدة رحبة، وتغترف من تلك الانوار الصافية، من سماوات الخلد، والجمال، والسعادة . فاذا تطلعوا الى اشياء الدنيا ألفوها حقيرة، دميمة، مظلمة، لا تكفي لان تضيء أحداقهم الواسعة، ولا تسعف آمالهم، ولا تشبع نفوسهم الكبيرة الجائعة الى خبز الحقيقة الثابتة . ومتى أخذت النفس بهذه الفكرة العظيمة، ذهلت عن مجد الحياة وصورها الزائلة، كما نعرف من سِيَر الحكماء والاتقياء، وكما نعلم من حياة فيلسوف اثينا الذي كان يغوص ساعات طوالاً في تأمل الحقائق الخالدة . ولا نحسبه الا كان هابطاً من تلك العوالم العالية النيّرة، يوم وقف يخاطب قضاته وشُكاته بتلك الحكمة السنية، وتلك الطمأنينة المقدسة، التي قلّما نجدهـا في غير شهداء الحق . وما اعمقه، ومـا اهوله حين يقطع حديثه مع قضاته بتلك البساطة السامية « فلقد دنت ساعة الرحيل؛ اما انا فالى الموت، واما انتم فالى الحياة . فحظ اينا افضل ؟ لا احد يعلم الا الله ! »

بلى ! كل الناس تعلم ان حظ الاشرار نسيان في هذه الحياة وظلمة ودمـار في الاخرى . قد لمعت اقباس مفاخرهم زمناً وردّدت الجموع اسماءهم مصانعة وكذباً، ثم مات ذكرهم بين جَلَبات الدهر، فان ذكَرَهم ذاكرٌ فلشتمهم وفضيحة اعمالهم . اما رجال الفضل، الذين صرفوا ايامهم في خدمة الانسانية من تثقيف جهالها، وتخفيف آلامها، وبذل الخير والمعروف الى افرادها، فهؤلاء وان اضطُهدوا وعُوقبوا في عيون الناس فذكرهم خالد يحكم على الظالمين بين الشعوب؛ وغُرَر احساناتهم وفضائلهم انشودة العصور والايام، لان الفضيلة المتألمة اقوى من الرذيلة المنتصرة، ولان موت الصُلّاح حياة، وغناء، وازدهار للبشرية، كما تكون حياة الشجرة وفروعها واغصانها في موت نواة صالحة .

وهذه محاورات سقراط شاهدة بفضله العميم على الانسانية ، وبثه الحياة في العلوم والآداب ، والفنون بكل انواعها . وقد عَظم شأنها ، حتى يقول عنها القديس يوستينوس الفيلسوف « انها كانت تهب لوحي اجنحة قوية » . ويسميها اكليمندس الاسكندري « توطئةَ النصرانية، وديباجة انجيل يسوع المسيح » . ومن قرأ اعترافات القديس اغوسطينوس وتأثراته وآرائه في محاورات سقراط ، يكاد يحسب حكيم اثينا انجيليًا خامساً ! فكأنّ سقراط هو من المحسنين الذين سطرت الفضيلة اسماءهم على جبين الدهر بحروف نيّرة ، وكانا هو من القديسين الذين طوبتهم كل الملل والشعوب . وما احسن ما كتبه الاب فابر « ان سقراط لهو اعظم رجل بين القدماء، فقد ضمَّ في شخصه بطولة أفيننداس وعبقرية دكارت ، وصدق نظر فرنكلن . لنقرأ ولنُعِد قراءة اناجيل آلام سقراط الثلاثة : الدفاع وكريتون ، وفيدون . انه ليتمثّل فيها اسمى ما يكون من معاني الحكمة والفضيلة الهِلّينية . فلا اجل من نهاية شهيد اثينا الا نهاية شهيد اورشليم ذاك الذي فيه جزء من الانسانية تعبد الهها . »

اني نشأت على حب القدماء من فلاسفة، وخطباء ، وشعراء ، وناثرين ، وثنيين ومسيحيين ، فظلت مطالعتهم بعد كتب الوحي خبزي اليومي ؛ فلا يطيب لي العيش الا في مجالستهم، ولا اعشق من الادب الا ما كان من روائعهم الساحرة التي تسمو بالنفس الى ممارسة الفضائل ، والتفكر بالامور الادبية ، والتعرف بخالقها الحكيم ، والاتصاف ببعض ما يدرك العقل من صفاته وكمالاته الغير المتناهية . « فان الالوهة هي الكمال جميعه ، وكلما تقرب الانسان من الالوهة ، ازداد تقرباً من الكمال » كما يعلم سقراط تلاميذه . ويا ليت الشباب يؤخذون بمثل غرامي ، اذن لكسد كثير من الروايات والاقاصيص الباطلة التي يُفرغ فيها جمٌ من الكتاب سُماً زعافاً لقتل نفوس الشبيبة الغضة !

ولقد شاءت النفس ان تقدّم لشباننا نُخباً من اولئك الكتاب القدماء الافاضل لتكون غذاء قوياً لشبابهم ، وليدركوا في مطالعتها معنى حياة الفضيلة ، والعمل ، والواجب . وما ان انتهيت في الصيف الماضي من تعريب « دَفاع سقراط » حتى وقعتُ

ان يجودوا بلقب الفصاحة على من ينطق بالحق . فان يكُ هذا موقع ظنهم ، فانني اعترف انني خطيب مفوّه ، ولكن ليس على شاكلتهم ، فانهم ليسوا من الصواب على شيء ، اما انا فسأبسط لكم الحقيقة كلها . وأقسم لكم بحياة زفس ، يا رجال اثينا ، اني لن ادبّج لكم خطاباً انيقاً بتخيرِ الالفاظ وجميل الفكر مثل خطبهم ، وانما سأقول قولاً بسيطاً بما يحضرني من عفو الكلام لاني على يقين من صدق قضيتي ، فلا يتوقعنّ احد منكم غير هذا اذ لا يليق بي في مثل هذه السن ، ايها الاثينيون ، ان اتقدم اليكم كالفتى الذي كل همه ان يتأنق في رصف عباراته . فأسألكم يا رجال اثينا ، وارغب اليكم ان لا تدهشوا ، ولا يثور ثائركم ، اذا سمعتموني انطق في دفاعي باللهجة التي أَلِفت النطق بها في شوارع المدينة والمصارف وغيرها(*) من الامكنة حيث كان الكثير منكم

اني مع حاجتي الى شتى الامور ، اهمل شؤوني لاهتم بشؤون الاثينيين فاراني مدفوعاً الى الصدود عنه ، والى ان اهرب واناملي في اذني ، هربي من فتيات البحر لئلا يفتنني فاجلس بجانبه الى ان يعبث البياض بلِمَّتي . واني لاكابد من هذا الرجل وحده ما لم يتخيَّله احدٌ فيَّ ، الا وهو الخجل . بلى سقراط وحده يخجلني . »

(*) قبل ان تخصص الحكومة الاكادمية والليسيوم للمحاضرات التعليمية ، بدل الالعاب الرياضية ، لم يكن في اثينا مدارس عمومية ، ولا مبانٍ خاصة لتهذيب الناشئة . فكان يقوم بهذه المهنة نفر من العامة الفقراء ، طمعاً في العيش والارتزاق ، او الجنود العاجزون ، او بعض الاجانب ، في بيوت خصوصيَّة . وكان يُنظَر اليهم نظرة الازدراء والاستخفاف . ومبلغ ثقافتهم كان تعليم القراءة والكتابة والموسيقى ، واستظهار مقطعات من الالياذة والاوذيسية ، واشعار هزيود .

واذ شعر سقراط بحاجة الشبيبة الاثينية الى اتساع نطاق العقل وتثقيفه بالحقائق

يقبل على استماعي . فانما انا داخل المحاكم لاول مرة ، وقد نيفت على السبعين[1] من عمري ، فلا يمكنني مع هذا الا ان اكون غريباً عن مقال هذا المقام . وهبوني كنت اجنبياً اما كنتم تتلطفون وتُبيحون لي ان انطق باللهجة والاسلوب اللذين اكون نشأت عليهما ؟ فأرجوكم هذا الرجاء العادل فيما اظن ان تُسيغوا لي التكلم بلهجتي ، حسنة كانت ام سيئة ، وان لا تأبهوا لسوى امرٍ : هل المنطوق به صدق ام لا ، وهذا واجب القاضي . اما واجب الخطيب فأن يقول الحق .

فأولاً من العدل ، يا رجال اثينا ، ان احتجّ على الفِرى الكاذبة والمفترين الأولين[2] ، ثم على ما تلاهم من الشكايات والشُكاة

الادبية ، والواجبات الوطنية ، اشرط نفسه للقيام بهذه الرسالة النبيلة . ولما كان من الطبقة البسيطة ، ابن نحات من صغار النحاتين ، فقد كانت محاوراته تدور عادة ، في الاسواق ، والمصارف ، والحوانيت ، كما يخبرنا تلميذه اكسنفون في ذكريات معلمه . فيحادث الشبيبة عن الفضيلة ، والصواب ، والحق ، والجمال ، والامانة ، والافكار العظيمة التي لها شأن في حياة الانسان . وكان تعليمه نزيهاً ، خالصاً من شائبة الطمع والاكتساب ، لاينطق بحقيقة الأ عن اقتناع صادق ، والهام روح علويّ يدفعه الى اتمام رسالته . فكان طريف المحاورة ، شديد التأثير ، قويّ الحجّة اذا خاطب احداً تركه مشغول الذهن في حاجة الى درس واستيضاح ما وقع في نفسه من المسائل الخطيرة والفكر السامية المستطرفة . ولم يمض الا القليل حتى غدا سقراط حديث الجمهورية الدائم ومعلم الرعاع والاشراف ، فاينما حلّ سقراط فهناك الشبيبة الاثينية وهنالك المدرسة الوطنية .

(١) يورد سقراط الامر نفسه في محاورة كريتون . فقد ولد حكيم اثينا سنة ٤٦٩ ق م وشرب السم سنة ٣٩٩ .

(٢) كان سقراط في كل حياته هدفاً للوشايات والمثالب ، كما يكون رجال البر

المتأخرين . لان كثيرين وقفوا يشكونني اليكم من عهد بعيد ، من غير ان يقوموا بدليل صادق ، وانه يهولني امرهم اكثر من أنيتس وعصبته وإن يكونوا شديدي الخصومة . الأ انَّ اولئك اشد شكيمة لأنهم، ايها الاثينيون، قد تناولوا الكثيرين منكم منذ الحداثة فزخرفوا لهم على قول الزور زاعمين ان سقراط رجل حكيم يستقري الظواهر الجوية ويسعى في استقصاء ما تبطنه سرائر الارض ، وينتصر للباطل على الحق . فهم بيثهم هذه النمائم قد ارهقوني اضراراً جمة لان السامعين لاراجيفهم يخيل اليهم ان المشتغلين بهذه المباحث لا يعتقدون بالآلهة . زد الى ذلك ان هؤلاء المشتكين هم كُثرٌ ، وقد سعوا بي عندكم من امد بعيد ، فأغروكم بي في هذه السن التي تكونون فيها اسهل واسرع ما يكون الى التصديق ، اذ ما يزال اكثركم في سن الحداثة والشباب فغدَوا يتابعون دعوى مهملة ، اذ لم اكن احاجُ عن نفسي . وأغرب ما في الامر اني لا استطيع ان اعرف او اذكر اسم واحد منهم ، ما عدا لفاقَ المهازل (*) Κωμῳδοποιός . فإن كل الأُلى دفعهم دافع الحسد والنميمة قد اقنعوكم، وان الذين اقتنعوا واخذوا في اقناع غيرهم لهم ابعد الناس

والاستقامة . وقد شكي مرتين ، في عصرين مختلفين على انه لم يحضر الى القضاء غير هذه المرة .

(*) هو ارستوفان شاعر المهازل المشهور قد ألف اربعاً وخمسين رواية هزلية ابقت لنا الايام منها احدى عشر كلها طعن برجال السياسة والشعر والحكمة امثال بريكليس واسخيل وافريبيد وسقراط . فهي اشبه بأهاج مُرة تبعثها نفس رديئة منتقمة

منالاً ؛ فكل هؤلاء لا يتهيأ لي احضارهم الى ههنا ، ولا قَرع احدهم بالحجة . فالامر محتوم اذن ان اكون في دفاعي كمن يقارع الظلال ويحاجها من حيث لا يحفل بالجواب احد . فانظروا بحقكم ان خصومي صنفان ، بعضهم شكوني اليكم حديثاً ، وبعضٌ من عهد بعيد كما قلت ؛ وفكّروا انه من اللازم ان احتجَّ اولاً على اولئك الذين قد اصختم لحججهم اولاً اوفر اصاخة منكم الى هؤلاء .

فو الحالة هذه لا بد لي ، يا رجال اثينا ، من ان احتج وان استل في وقت يسير من نفوسكم ما قد ترسّخ فيها من النميمة من عهد بعيد . وانا راغب في الاحتجاج على شرط ان استدر منه بعض المنافع لكم ولي ، وان يوليني امراً فوق هذا ؛ بيد اني ارى دونه خرط القتاد ،

على ان فيها من صفاء الاسلوب ودقة الصناعة ما حبَّب قراءتها الى افلاطون نفسه . وخير وصف لهزالة اثينا ما جادت به ريشة المؤرخ والاديب البارع فلوترخس . قال : « انه يغالي في تمثيل الطبيعة ويسوق روايته الى الطغام احرى مما الى الاشراف : انشاؤه يدافع بعضه بعضاً ، متأنق حتى البهرجة ، سهل الى حد البذاءة ، يفرط في مجونه حتى السخافة . لا يُعرف عنده الولد من الوالد ، ولا المدني من القروي ، ولا المحارب من النبيل ، ولا الاله من الخادم . هيهات ان يضطلع بحمل وقاحته غير السوقة ، ملحهُ مرّ حامز يلذع لذعاً ، ونكاته تدور بين تلاعب الفاظ ومعميات خسيسة وتوريات متعمّلة سافلة . ان حدة الذهن في عرفه خبث والبساطة تغفّل اما افاكيهه فالاجدر ان يُضحَك عليها من ان يُضحَك لها . ان سروره لهو الوقاحة نفسها فكأنه لا يكتب ليلذّ للعقلاء النابهين بل ليداعب الحسد والشر والرذيلة . »

ولا تخفى علي من مصاعبه خافية . ولكن المرضيّ عند الله هو فليكن !
فلا بد من الاذعان للقانون ولا بد لي ان احتج .

دعوى الخصوم

فهات نعود الى البدء ، ونبسط الشكاية التي نجمت عنها تُهمتي ، وتعلّق بها مليتس فرفع علي هذه الدعوى . فما الذي يثبته هؤلاء المشتكون في شكاوتهم ؟ فلتقرأ أليّة المدّعين[1] : « ان سقراط مجرم بتفحصه سرائر الارض والسماء عن فضول ، وبابداله الحق بالباطل ، وبتعليمه هذه الامور للآخرين ». هذا نص دعواهم التي رأيتموها باعينكم تمثل في مهازل ارستوفان[2] حيث يُعرض

---

(١) في اثينا، كان كلٌّ من صاحبي الدعوة والشهود يبتُّ يميناً . فالمدعي يثبت انه سيقول الحق ، والمدعى عليه يحتجّ لنفسه . والأليّة القَسَم ، جعلنا هذا اللفظ تعريباً لكلمة ἀντωμοσία وهي تعاهد المترافعين على ان لا يمكر احدهما بالآخر ، ثم الدعوى نفسها المثبتة بهذا التعاهد .

(٢) يريد سقراط بهذا مهزلة ارستوفان المدعوة « السُحُب » التي مُثلت في عيد كثيلة ، ام زفس ، سنة ٤٢٣ ق‌م حيث عرض فيلسوف اثينا مغالِطاً ، زِنديقاً ، يعلّم الكفر والعصيان . وغريب ان سقراط نفسه كان حاضراً عند تمثيل الرواية ! ولما ان انفضّت الجموع ، مشى الفيلسوف بين تلاميذه طيّب النفس بشوشاً حسب مألوفه . وفي لفتة من شوارع اثينا التقى سقراط بأرستوفان عائداً بين اصحابه ، في ابهة واحتفال . فخجل ارستوفان ، وود ان ينحاز ، على ان سقراط قصد توّاً اليه وجبهه خفيفاً بطاقة من الورد كانت في يده ، فبُهت ارستوفان وتحول مذعوراً . فقال له الفيلسوف :

سقراطٌ ما سخرية للساخرين ، زاعماً ان في استطاعته ان يمشي في الهواء، الى ما هنالك من الخرافات الباطلة التي لا ادرك منها كثيراً ولا يسيراً. ولا اتكلّم مزرياً بهذا العلم ، اذا كان لبعض الحكماء المام به ، وحاشا مليتس ان يأخذ علي من هذا مآخذ جديدة ! ولكني، يارجال اثينا، بريء العهد مما رميت به ، وعندي شهود كثيرون منكم انفسكم . فارغب اليكم ان يُعلِم بعضكم بعضاً بما كنت اتحدث به ، انتم ، يا كل الذين سمعتموني اتحدث في وقت من الاوقات ، و كثيرون منكم هم نظراء في هذا . اجل فليعلم بعضكم بعضاً هل سمعني احد جلت يوماً في حديث كذا ، سواء كان بقليل او كثير ؟ وتيقنوا بعد هذا ان كل ما يؤثره الجمهور عني انما هو من هذه البضاعة .

زاهد سقراط

فلا أثَرللصحة في تلك المزاعم، ولا في ما قد يكون بلغ مسامعكم من اني دائب على تهذيب الناس طمعاً بالمال ؟ فهذا ايضاً ادعاء لاصحة

يا ارستوفان ، اسلك في هذا مسلكي من روايتك ، وغضّ الطرف عن الاذى لما في الورد من شذا . فصاح احد المارّة : احذر يا هذا ، ان بين الورود صلّاً ! — وكان هذا افلاطون . وغب ثلاث وعشرين سنة ، بعد ان مثل سقراط مأساته الخالدة ، كان ارستوفان سائراً يفكر قرب البريتانة (سراية الحكم في اثينا) فاذا بتلميذ سقراط يعيد صيحته المرجفة : الم اقل لك ، يا ارستوفان ، ان بين ورودك صلّاً ! . . .

فيه . بيد اني استكرم من يأخذ على نفسه ثقافة البشر على شاكلة جورجياس الليونتي، وبروذيكس الليوسي، وابياس الايلي[١] . فكل واحد من هؤلاء، ايها الاثينيون، يطوف كلًّا من المدائن ليقنع الشبان الذين في استطاعتهم ان يتثقفوا عند من ارادوا من بني وطنهم بلا أجر ولا كُلفة، ان يقاطعوا اهل وطنهم ويقصدوهم قصد التتلمذ لهم، في حين هم يطالبونهم مع الاجر ان يعرفوا لهم حق المنَّة . ولقد عرفت بوصول رجل حكيم الينا من باروس، لاني التقيت مرة بوطنينا كالياس[٢] بن هبونيكس الذي بذل من الاموال للفلاسفة المغالطين اكثر من كل احد، فقلت له: « لو ملكت يا كالياس بدل الولدين

---

(١) قبل سقراط لم يوجد في اثينا من الفلاسفة سوى المغالطين الدوّارين، الذين كان دأبهم المماحكات الفارغة، قصد التعيش وابتزاز المال . ولم يكن قام بعد من مذهب فلسفي؛ فكان هؤلاء الفلاسفة يلقون تعاليمهم التهذيبية، والفلسفية، والسياسية، والادبية، والبيانية، والصرفية على طريقة خطابية . على ان لهم فضلًا في جعلهم الانسان محور العلوم الطبيعية، طبقاً لمبدإ اميرهم بروتاغوراس القائل: « الانسان مقياس كل الاشياء « πάντων χρημάτων μέτρον ἄνθρωπος » وقد عدّ سقراط هنا بعض من كان منهم مفتوناً بحب المال . ومما كان يردده بروذيكس: « يدٌ تغسل يداً، أعطِ وخذ! » .

(٢) كان كالياس ممن يضرب المثل بغناهم، ويروي فلوترخس انه لم يكن يعرف في زمانه بغير لقب « الغني » .

مُهرين او عجلين ، لاستأجرنا لهما مربياً يروضهما على الطّيب المحمود من الصفات اللائقة بطبيعتهما ، وهذا الرائض يكون من الخبراء بتربية الخيل او فلاحة الارض . اماَّ وقد رزقت رجلين ، فأي مؤدب تطلب لتأديبهما ؟ من الخبير بفضائل الرجولة والوطنية ؟ لا اخالك الا فكرت في الامر منذ ما رزقت ولديك . اتراك وجدت بغيتك ام لم تجدها ؟ قال بل وجدتها — قلت من الرجل ؟ وما وطنه ؟ وكم اجره ؟ قال : هو افينوس الباريّ ، يا سقراط ، واجره خمس وزنات[1] ! ، فغبّطت افينوس ، ان صدق ما يعزى اليه من العلم ، وان كان يعلم بهذه الهوادة . اما انا فما اكثر ما كنت اتيه فخراً وكبراً لو كان لي مثل هذه المعارف ، ألا اني اقرُّ ، يا رجال اثينا ، اني لا املك من ذلك شيئاً[2] .

---

(١) تعادل نحو خمس مئة فرنك .

(٢) وصف اكسنفون في ذكرياته تجرد معلمه فقال : « قصد انتيفون يوماً سقراط وفي نيته ان ينفِّر عنه تلاميذه فخاطبه امامهم : لقد ظننت يا سقراط ان الفلاسفة هم اسعد الناس حظاً ، فاذا بي اراك تجني من الفلسفة خلاف هذا . فانت تعيش عيشاً لا يرضاه عبد عند سيده ، فتتناول ارداً طعام ، وتشرب اكدر شراب ، وتلبس الخشن من الثياب من غير ان تخلعه صيفاً ولا شتاء ، وتقضي ايامك بلا حذآء ، ولا ردآء ، ولا تقبل الفضة التي تبهج اصحابها ، وتجعلهم اوفر حرية ورغداً . فان كنت انما تؤدب تلاميذك كسائر المؤدبين الذين يصوغون من خريجيهم انداداً لهم ،

فاعلم انك معلم للبؤس والشقآء .

فاجابه سقراط على هذا : اني لاراك يا انتيفون تتصور فيَّ حياة الشقاء حتى لاحسبك تؤثر الموت على ان تعيش عيشي . فهات نعتبر الذي تراه شقاء في حياتي. اذلك لان الذين يتقاضون الاجرة هم مضطرون الى القيام باعبائها الى اصحابها ، بينا انا لا اقبل فضة ، ولا أُكره على الكلام الى من لا اشاؤه ؟ ام لعلك تزدري طرائق عيشي لاني اتناول من الطعام ما هو اقل صحة واساغة من طعامك ؟ ام لان قوتي اصعب تحصيلاً من حيث هو نادر كثير النفقة ؟ ام لان الاطعمة التي تحضَر لك تهنؤك اكثر مما يهنؤني طعامي ؟ الا تدري ان الذي يُقبل الى الطعام باقوى شهوة تكون حاجته اقل الى التوابل ، وان الذي يشرب باكثر لذة ينزع نزوعاً اقل الى الشراب النادر ؟ وانت تعلم ان تبديل الثياب يكون بسبب القر والحر ، وان فائدة الاحذية ان لا تعاق الاقدام عن السير ، فهل بلغك اني لزمت بيتي اكثر من الآخرين خشية البرد ، او نازعت غيري الفيء ، او مُنِعت من كلالة قدمي عن ان اضرب حيث اشاء ؟ أفاتك ان نِحَال الابدان بالطبع يصبحون اوفر قوة من الاشدآء فيما تمرَّسوا به ، وأنهض باعبائه ؟ الا تدري اني ، وقد روَّضت جسدي على مكاره الدهر ، في طوقي ان اتحمَّل جميعها باشد بأساً منك ، وانت لم تتروَّض على شيء ؟

واذا دعت نجدة الخلان او الوطن ، فمن اخلى ذرعاً لتلبية الدعآء ؟ أأنا في حالتي هذه ، ام انت الذي تغبط بشاشة عيشك ؟ ومن يهبُّ الى الحرب باشد عزيمة ؟ هل الذي لا يروقه العيش بغير مائدة انيقة ، ام الذي يقنع منه بما حضر ؟ ومن اخف الى وضع السلاح والاستكانة ؟ أمن يفتقر الى فاخر الطعام ، ام الذي يرضى منه بما تيسَّر ؟ اني لاراك يا انتيفون تتوهَّم السعادة في الترف والرخآء ! اما انا فاعتقد ان

وهي ذلك

ولرب معارض منكم يقول : « ما شأنك يا سقراط ؟ كيف حلّت بك هذه النمائم ؟ فلو لم تأتِ ما يربي على الاكفاء ، لم توافكَ هذه الشهرة والذكر البعيد، ولما تحدث عنك الناس، لو لم تمارس من جلائل الاعمال ما عجز عنه الآخرون . فهات حدثنا عن ذلك لئلا نجازف في حكمنا عليك . » ان هذا المعترض لعلى بيّنة من اعتراضه ، وسأحاول ان اشرح لكم ذلك ، وما الذي اكسبني هذه الشهرة ، وألصق بي هذه التُهمة . فسمعكم الي . قد أظهر لبعضكم هازلاً في ما اتكلم به ، ولكن اعلموا يقيناً اني سأروي لكم مقالة صدق لا يُختلف في صحتها . اني لم أبلغ ، يا رجال اثينا ، هذه الشهرة بسوى الحكمة . وما ترى تلك الحكمة ؟ ان هي الا حكمة بشرية وأكاد، وايم الحق، لا املك سواها. اما هؤلاء الفلاسفة الذين اتيت بذكرهم ، فربما تفوق حكمتهم الحكمة البشرية ، وهيهات ان اضطلع بوصفها وانا لا ادرك من معانيها شيئاً ؛ فمن نسب اليّ شيئاً منها فانما هو كاذب مفترٍ . الا بحقكم ، يا رجال اثينا ، لا يثرْ ثائركم عليّ ان بدا ما ابسطه لكم بمظهر العُجب والخيلاء ، فما انا قائله لا اقوله من عندي، وانما انا مسنده الى من هو جدير بثقتكم ،

الالوهة لا تحتاج الى شيء ، فكلما قلّت حاجة الانسان تقرب الى الالوهة ، وبما ان الالوهة هي الكمال جميعه ، فكلما تقرّب الانسان من الالوهة ، ازداد تقرباً من الكمال . »

فاني متقدم اليكم بالاه ذَلف[١] شاهداً على حكمتي ، ان كان عندي قبس من الحكمة ، كيفما كانت. لا شك انكم تعرفون خريفون . فهذا كان صديقي منذ الصبا ، وهو صديق الاكثرين بينكم ، وقد شاطركم أسى منفاكم[٢] واصطحبكم في رجوعكم ؛ وانكم لتدركون ما كان عليه من عزيمة حذّاء في مساعيه . فهذا قصد ذات يوم الى ذَلف ، واستنبأ بجرأة عما نحن في صدده ، ولا يغضبكم ، ايها الاثينيون ، ما انا قائله ، فسأل هل من حكيم اوفر مني حكمة ؟ فأجابته العرّافة :

---

(١) مدينة في مقاطعة فوسيذة ، تقع في السفح الجنوبي الغربي من جبل البرناس ، شهيرة بمعبد أفلون الذي كان يقصده كل سكان اليونان ومن جاورهم حتى من برابرة آسيا ، طلباً لوحيه ، واستشارة لعرّافاته في صعاب الامور . وكان مكتوباً على واجهة المعبد هذه الآيات المشهورة « اعرف نفسك . اياك والافراط . لو » . وفي صدر المعبد يرتفع شخص عظيم لافلون بديع الصنعة ، كله من ذهب خالص . وكان يحيط بالمعبد اروقة وافنية وغرفات عديدة لخزن ما كان يتدفق عليه من النذور والتقادم وتحف الفن واسلاب المنتصرين ، حتى لقد كانت تقدّر ثروته بعشرين مليوناً من عملة ذلك الزمان . وفي عصر بلين الكاتب اللاتيني ، بعد ما نهبه الفوسيون ، وجد فيه ما ينيف على ثلاثة آلاف صنم من ذهب وفضة وشَبَه (برونز) ورخام . وما زال معبد ذلف قبلة الوثنيين ، ومهبط وحيهم حتى أغلقه نهائياً ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٨٥ .

(٢) حكم بهذا المنفى على اعيان اثينا الثلاثون ظالماً سنة ٤٠٤ ق. م. وعاد هؤلاء المنفيون بعد ثلاث سنوات في عهد القائد الاثيني ثراسيبولس ، قبل الحكم على سقراط بسنة .

كلا ، لا احكم من سقراط . ولكم شاهدٌ على ما اقول شقيق خريفون الحاضر هنا ، لان خريفون وافته المنون .

قول سقراط

ولكن تأملوا بحقكم ما الذي ساقني الى ذكر ما ذكرت . ذلك ان الواجب يقضي علي ان اكشف لكم سُبُل النميمة الي . فلقد لبثت بعد سماعي ما قد اسمعتكم افكِر في نفسي واقول : ما هذا الذي يوحيه الالاه ، والى ما يشير في وحيه ؟ فلست اعرف لنفسي شيئاً من الحكمة ، جليلها ام قليلها . فما تُرى يعني بقوله اني احكم البشر ؟ لان الله لا يُخدع ولا يستطيع الى الخداع سبيلا . ولقد بقيت زمناً طويلا متردداً في صحة هذا القول ، الى ان اتجهت بعد الجهد الكثير الى تمحيصه على هذا الاسلوب . فعمدت الى واحد من المعدودين في جماعة الحكماء املَ ان اجد عنده ما ادفع به قول الوحي واجيبه : ان ذلك المرء لاوفر مني حكمة ، وانت شهدت اني احكم الناس . ولما ان بلوت الرجل وسبرت غوره — ولا حاجة الى ذكره فهو من ارباب السياسة — بدا لي ، يا رجال اثينا ، انه حكيم في نظر الكثير من الناس ولا سيما في عيني نفسه ، ولكنه لا حكمة عنده . فأخذت أثبت له انه انما يظن بنفسه حكيماً ، وما هو بحكيم ، فجلبت على نفسي بغضته وبغض كثير ممن حضروا مجلسنا . وانثنيت وانا افكر في نفسي : لا ريب اني احكم من هذا الرجل ، لان كلينا يكاد لا يدرك شيئاً من فكرة الخير والجمال ، الا انه مع جهله يدعي العلم ؛ اما انا فلا اعرف ، ولا ادّعي

المعرفة . فعلمت يقيناً اني احكم منه ، اقلّه في هذا ، اني لا اعتقد معرفة ما لا اعرفه . ثم قصدت الى آخر ممن وقع عليهم زعم الحكمة فوجدت الامر عينه ، وبغَّضت نفسي اليه والى كثيرين غيره .

مباحثة الشعراء

ومـا زلت اتابع البحث والتنقيب ، رغم ما حلّ بي من المشقة والخوف والبغضة ، لاني رأيت الواجب يقضي علي ان اعتبر وحي الله فوق سائر الامور . فكان ، والحالة هذه ، لا بد لي ان اطوف بكل من لهم المام في شيء من المعرفة لاتقصّى معنى الوحي . وقسَماً بالكلب ،(*) يا رجال آثينا ، لانه لا مَعدِلَ لي عن ان اصارحكم بالحقيقة ، اني وجدت ما يقارب هذا ، أن الذين طـار صيتهم في الآفاق بدوا لي ، انا الذي

(*) لا ندري ما هذا القسم الذي يعود مرات في محاورات افلاطون ؛ قد يكون ذلك تورعاً وتنزيهاً لاله سقراط . وهذه فكرة محتملة في تقوى القدماء الذين كانوا يتجنبون تسمية الآلهة احتراماً لهم ، او خوفاً منهم ، فيكتفون بالقابهم ويقولون : البعل ، والبعلة ، وادوني ، والسيد . وربما هذا الاحترام او الخوف امتد الى الملوك ، كما كان يفعل المصريون بكنايتهم عن ملكهم بقصره او بلقبه فيقولون « البيت العظيم » « وفرعون » . وعلى هذا جرى الاتراك بتسميتهم حكومتهم « الباب العالي » . وقل مثل ذلك في القسم ، فان رَدَمنث ملك الليكيين كان يقسم بالكلب ، والأوز ، والسنديانة ؛ وفيثاغوروس كان يحلف بالعدد الرابع ؛ وتلامذته بمعلمهم . على انا نجد سقراط يعود فيقسم بزفس رب الارباب . هذا والله اعلم !

يسبر الامور بمعيار الله ، مفتقرين الى العلم الأهم ، وغيرهم ممن نشر الخمول فوقهم رداءه ، قد بدوا لي اكثر جدارة باقتناء الحكمة . ومهما يكن ، فلا بد لي من وصف رحلتي وما عانيت فيها من تعب ناصب لتتأكد لي عصمة الوحي . فبعد ان سبرت السياسيين، رميت بآمالي الى شعراء المآسي ، والغناء ، وغيرهم من ارباب النظم ، ظناً مني اني سأفجأ هنالك بالوقوف على جهلي ؛ فتخيرت من منظوماتهم ما اعتقدته الغرر المهذبة المستجادة ، وشرعت اسائلهم عما يراد بها . واني لاخجل من قول الحقيقة، ايها الرجال، على اني لن اصمت . واذا كان لا بدَّ من القول قلت : ان كل الذين حضروا مجلسنا في وسعهم ان يشرحوا احسن منهم تلك المنظومات التي هم نظموها . فوقفت على دخيلة الشعراء في لمحات قليلة ، وعلمت انهم ينظمون الشعر لا بفضل الحكمة ، وانما بفضل موهبة طبيعية اذ يرف فوقهم الالهام ارفافه على الانبياء والعرافين ، لان هؤلاء ايضاً يتدهون طُرَفاً كثيرة نفيسة وجليلة من غير ان يدركوا من معانيها شيئاً . وايقنت ان الشعراء هم لمن جازت عليهم الاوهام فحسبوا انهم بقرضهم الشعر امسوا اهل مقدرة و كفاية في سائر الامور ، ولو انهم ليسوا على شيء من ذلك . فودّعت منازل الشعراء بعد ما عرفت اني افوقهم شأواً كما فقت ارباب السياسة .

مباحثة الصناع

ثم نزعت في البحث الى الصنَّاع من غير ان أُخفي على نفسي انني لا اقطع بشيء من صناعتهم ، و كنت انتظر ان اجد هؤلاء اعلاماً في امور

جمة جميلة. وحقاً لم يخب ظني اذ كانوا يعلمون كثيراً مما اجهله، فهم في ذلك احكم مني. وانما بدا لي، يا رجال اثينا، من النقص في اولئك الصناع الحذاق ما قد شهدته عند اخوانهم الشعراء، ان الواحد منهم يزعم لنفسه الاجادة في سائر العلوم العالية لما قد يكون احكمه من امور فنه، وهذا الادعاء يشوب فضل حكمتهم. فاخذت اسائل نفسي في امر الوحي، ما الافضل لي؟ هل البقاء على ما انا عليه عاطلاً من حلي حكمتهم وشائن جهالتهم، او اقتناء كلا الامرين معاً؟ وما عتمت ان جاوبت نفسي والوحي معاً، انه لافضل لي ان ابقى على ما انا عليه.

تعليل الوحي

فهذه المباحثات، يا رجال اثينا، هي التي انشأت لي تلك البغضة القتالة، اشد واهول ما انطوت عليه القلوب البشرية، وهذه انتجت لي نمائم وفرى لا تعداد لها، فكان ذلك مدعاة لشهرتي في الحكمة، لان الحاضرين مجلسنا خيل اليهم انني حكيم فيما كنت اباحث فيه غيري. بيد ان الله وحده هو حكيم، يا رجال اثينا، وقد شاء ان يعلن بوحيه ان الحكمة البشرية حقيرة وكلا شيء. وما كان الله ليقصد التنويه بذكر سقراط، وانما استخدم اسمي مثلاً، فكأنه يقول: ان الحكيم بينكم، ايها الانام، من يماثل سقراط معتقداً انه ليس من الحكمة على شيء. واني لم ازل جاداً في البحث استطلاعاً لمعنى الوحي، اناقش اهل وطني والغرباء، ممن اظن فيهم مظان الحكمة. فاذا لم استطع في

احدهم شيئاً من بوادرها أكَّدت وحي الله وقلت : انه ليس بحكيم ! ولفرط اهتمامي في البحث ، عُديت عن القيام بما يعود بالخير على وطني وأسرتي ، وصرت الى هذا الفقر المدقع ، لاني أخليت ذرعي لخدمة الله .

الشبان الاثرياء يقلدون مباحث سقراط

أضف الى ذلك ان الشبان المسترسلين الى البطالة من كرام البيوتات يتبعونني من تلقاء نفوسهم ، مسرورين بما يتفق لي من الابحاث مع الناس . ولَشَدَّ ما كانوا يأخذون إخذي في امتحان غيرهم ، ولا أظن يفوتهم الوقوع على جَمٍّ غفير ممن يزعمون لنفوسهم التبسُّط في العلم ، حالة كونهم لا علم لهم في شيء . فسخط علي اولئك الممتَحنون دون ان يتعرضوا للشبان بتة ، ولكنما اقبلوا يتجنَّون على سقراط انه رجل ماكر خبيث الطوية مفسد لاخلاق الشبيبة . ولو سألهم سائل ما اعمل واعلّم لما احاروا جواباً ، لانهم جهلة من كل معرفة . الا انهم ، تجنباً لمعرَّة الجهل ، يلجأون الى هذه الشكايات المبتذلة السخيفة علـى المشتغلين بالفلسفة ، زاعمين انهم يحاولون اكتناه الظواهر الجوية ، وسرائر الارض ، وانهم لا يؤمنون بالآلهة ، ويبدلون الحق بالبـاطل . وارى انهم انما يموّهون حديثهم لئلا تنكشف دِخلة امرهم فيُعلم انهم متظاهرون بالعلم تظاهراً في حين هم لا يعلمون شيئاً . ولا احسب هولاء الحسَّاد المتعددين المتوافقين جدَّ وفاق على القدح في عرضي الا قد شحنوا اسماعكم من

الوشايات والدسائس، ولا يفتأون يشحنونها. فمنهم مليتس [١] وانيتس [٢] وليقون [٣] الذين انهالوا في شكايتي اليوم امامكم. اما مليتس فيغضب تعصباً للشعراء، وانيتس للسياسيين وارباب الفنون، وليقون يتحزّب للخطباء. واني لاعجب العجب كله، كما قلت غير مرة، كيف يتأتى لي ان اقتلع في وقت قصير ما قد تأصل في نفوسكم من سخائم مستحكمة. على انني قد أفضيت اليكم بالحقيقة كلها، يا رجال اثينا، ولم أخفِ منها كبيرة ولا صغيرة، مع اني اكاد اتيقّن ان صراحتي هذه ستجلب علي بغضة المبغضين، ولوم اللائمين. ولذلك دليل صادق على اني اقول الحق، وان شكايتهم انما هي فرية كاذبة، وادّعاء باطل لما يدّعونه علي. ونقّبوا ما شئتم، وابحثوا اليوم وغداً، فلن تجدوا الحقائق على غير ما وصفتها.

---

(١) مُرافع سقراط، هو ثراقي الاصل، صاحب مأساة سخيفة عنوانها «أديب» سمي لذلك ابن لايوس (والد أديب) زراية به. وكأنّ سخرية سقراط بالشعراء امثاله اثارت في نفسه السخط والغيرة على اخوانه!

(٢) انيتس، الملحُّ في دعوى سقراط، دباغ أثيني حوكم سنة ٤٠٩ لتركه مدينة بيلوس طُعمة لغارات الاسبرطيين. ويعرف بانه مفسد لاعضاء المحكمة الاثينية. ساءه من سقراط انه كان يعدل بفتاه النجيب عن ان يسير في سبل ابيه المعوجّة.

(٣) ليقون واحد من البيانيين الذين كانوا يتودّدون الى الشعب لاستكماله، وهو احد العشرة الخطباء الذين وكل اليهم صولون ان يعرضوا على الاثينيين الشرائع والاحكام. وقد كان سافل الاخلاق مدمناً الشراب فاستحق ان يحشده ارستوفان، في مهازله، مع الخطباء السكيرين، اهل الكاس والطاس.

دعوى مليتس

حسبي هذا دفاعاً امامكم لما قذفني به خصومي الاولون . وانا آخذ في جدال المحدثين ، ومليتس ، رجل الفضل والوطنية ، كما زعم . فهاتِ نبسط أليّة(*) هؤلاء المدّعين الآخرين . دونكم نصّها الحرفي تقريباً : « ان سقراط مجرم بافساده الشبيبة ، وجحوده آلهة المدينة ، واعترافه بآلهة أخرى جديدة . » تلك دعواهم عليّ ، فلنمحصها بنداً بنداً . يقولون اني مجرم بافسادي الشبيبة . وانا اقول لكم ، يا رجال اثينا ، ان مليتس مجرم لانه يهزل في مواقف الجدّ والرزانة ، بمنافذته الناس الى القضاء عن طيش وخفة جنان ، متظاهراً بالاهتمام بما لا يهمه ، مدّعياً الغيرة على مصلحة هو اكثر الناس تهاوناً بها ، وتغاضياً عنها . وسأحاول ان ابرهن لكم ان الامر على ما ذكرت .

مناقشة سقراط لغريمه

سقراط : ألا فابرز ، يا مليتس ، وقل لي . أليس ثقافة الشبيبة هي قبلة امانيك ؟

مليتس : بلى .

س . فهيّ الآن وانبئ القضاة من يصلح الشبيبة ، لانك تعرفه والامر يهمك . قد وجدت الذي يفسد الشبيبة ، على زعمك ، فشكوتني

الى القضاة متجنياً ، فهلمَّ وأعلم القضاة بالذي يصلح الشبيبة ويهذب اخلاقها . أرأيت، يا مليتس ، كيف رُميت بسُكاتك وفُتَّ في عضدك ؟ أولا ترى في ذلك وصمة عارٍ تصمك، وحُجَّة وثيقة على ان ثقافة الشبيبة لا تهمك بتة ، كما بيَّنت ؟ ولكن هاتِ أجب ، يا صاحب الفضل ، فمن الذي يؤدب الشبيبة ويسمو بها الى الكمال ؟

م . الشرائع .

س . ما عن هـذا ، اسأل يا اخا الفضل ، بل عن الرجل الذي عرف الشرائع اولاً فاضطلع بتهذيب الشبيبة .

م . هم القضاة ، يا سقراط .

س . ما تقول ، يا مليتس ؟ وهل القضاة يضطلعون بتهذيب الشبيبة وردّها اوفر فضلاً وكمالاً ؟

م . لا مشاحَّة في ذلك .

س . ولكن ، اكُلُّهم يستطيع ذلك ام نفر قليل منهم ، ام لا احد يستطيع ذلك ؟

م . بل جميعهم .

س . أجدت وحياة هيرة ، يا مليتس ، وجُدتَ علينا من ارباب الفضل بالعدد الوفير ! ولكن ، افي وُسع الحاضرين ههنا ، المتفرجين ، ان يصلحوا الشبيبة ، ام لا ؟

م . اجل ذلك في وسعهم .

س. وما رأيك في ارباب الشُورى.

م. وارباب الشُورى كذلك.

س. ولكن، يا عزيزي مليتس، الا يمكن الذين يحضرون محافل الشعب ان يفسدوا الشبيبة، ام لعلهم هم ايضاً يسمون بها الى الفضل والكمال ؟

م. بل هم يسمون بها الى الفضل والكمال.

س. وايم الحق ان سكان اثينا قاطبة لَيجمعون على ترقية الشبيبة، ما عداي فانني أرهقها اضراراً جمة. أليس هذا مزعمك ؟

م. بلى، بلى، هذا ما اعنيه تماماً.

س. فلقد قذفت بي الى شقاء عظيم ! مع ذلك فأجبني. أيلوح لك ان الامر نفسه ينطبق على الجيـاد ؟ أعني ان المطهِم لها هم الناس باجمعهم والمفسدَ لعريكتها هو واحد ؛ أم بعكس ذلك أي مضمِّرها واحد، او أقلّه نفر قليل هم ساسة الجياد، أما عامة الناس فيفسدون طباعها، ان هم اختلطوا بها او ركبوها ؟ لا اخال الامر يجري على غير هذه الصورة، شئت انت وانيتس ام ابيتما. والا فما كان اسعد الشبيبة لو كان مفسدها فرداً واحداً، ومُصلحها جماً غفيراً. حسبنا يا مليتس ما نطقتَ برهاناً على ان أمر الشبيبة لم يخطر لك يوماً ببال، ودليلاً على عَبَثك وفرط تهاونك بما نافذتني لاجله الى مجالس القضاء.

ضعف الاتهام

الا انبئنا يا مليتس، بحياة زفس، ايَّما أحسن للانسان معاشرة

الصلّاح من ابناء الوطن ، ام الاشرار ؟ هلّا اجبت ، يا صديق ، فلم اسألك صعباً . أوَ لا تكون مخالطة الاشرار شرّاً ، والصلّاح صلاحاً ؟

م . لا ريب فيما تقول .

س . أيرغب احد في المضرّة من خلطائه بدل المنفعة ؟ هلّا اجبت ، يا رجل الفضل ، فالقانون يأمر بالجواب . أشهدت احداً يسعى في طلب المضرة لنفسه ؟

م . كلا .

س . قد رافعتني الى القضاء بداعي إفسادي الشبيبة وتسفيهها ، أفكان ذلك مني عَمداً ام خطأً ؟

م . بل عَمْديٍّ .

س . ما هذا التفوّق ، يا مليتس ! أتسبقني في الحكمة بمراحل ، مع حداثة سنك وتقدمي في العمر ، فتدرك ان الاشرار يُنتجون ابداً الشر لمن خالطهم من اهل البرّ ، وان الابرار يعودون بالفضل على خلطائهم ؟ وأنا أيصل بي جهلي الى حدّ لا ادري معه اني ان حدوت احداً من خلطائي الى الرذيلة ، فقد علق بي شيء من رذيلته ، وقد أسأت عمداً الى نفسي هذه المساءة الجُلَى كما تزعم ؟ على اني لست مصدّقك في هذا ، يا مليتس ، ولا احسب احداً من الناس يصدّقك . فإمّا اني لا أفسد احداً ، واما اني مفسد عن غير تعمد : فانت كاذب في كلا الحالين . بيد اني ان كنت مفسداً بغير تعمد ، فلا قانون يأمر باحضاري الى ديوان القضاء لذنوب لم ارضَ بها يوماً ، بل يأخذني القانون على حدة ليعلّمني وينبّهني ،

اذ لو علمت ، لما اتيت ما لا اريده . اما انت فقد تحاشيت أُلفتي ، ولم تشأ ان تثقِّفني ، فجئت بي الى حيث لا يقود القانون سوى من هم احرياء بالعقاب ، لا بالتعليم .

مناقضة مليتس

أجل ، يا رجال اثينا ، ان هذا لدليل على ما كنت اقول ، ان مليتس لم يُعنَ يوماً بهذا الشأن ، قليلاً ولا كثيراً . مع ذلك فهات حدثنا ، يا مليتس ، كيف افسدتُ الشبيبة ؟ أليس على طريقة ما أوردتَ في دعواك ، أني اعدل بها عن الاعتقاد بآلهة المدينة ، الى آلهة اخرى جديدة ؟ الا تقول اني افسدها ببثّي في عقول افرادها هذه العقائد ؟

م . بلى هذا مفاد قولي .

س . ناشدتك يا مليتس ، بهذه الآلهة نفسها ، التي فيها كلامنا الآن ، ان تجلوَ غامض امرك لي ولهؤلاء الرجال . فانا لا افهم أتثبت عليّ القول بوجود بعض آلهة — وانا ان كنت اعتقد بوجود آلهة ، فلست مُلحداً كلَّ الالحاد ولا مجرماً في هذا — انما ليست من معبودات المدينة بل هي مختلفة عنها ؛ أفأنت تشكوني لسبب اختلاف هذه الآلهة ، ام تتّهمني بجحود الآلهة مطلقاً وبتعليمي الغير هذا المعتقد ؟

م . اجل ، هذا ما اقوله ، انك لا تعتقد بالآلهة بتاتاً .

س . عجباً ، يا مليتس ، وايما عجب ! علامَ تنطق بالبُهتان ؟ الا

أعترف بالشمس [1] والقمر إنهما الاهان كما يعتقد سائر البشر ؟

م ٠ كلا ، وحياة زفس ، يا رجال اثينا ، فلا يؤمن بها ، لانه يقول ان الشمس حجر ، والقمر تراب ٠

س ٠ لعلك تتوهم شكاية أنكسغور [2] ، يا عزيزي مليتس ،

---

(١) عبادة النيرات قديمة في الامم ، واقدمها عبادة الشمس ٠ فاول من سنّها الملك اخناتون المصري في القرن الرابع عشر قبل المسيح ولا تزال الاغاني التي نظمها لإلاهه الشمس مسطورة على جدران القبور المصرية ٠ ومن هنالك انتشرت الى الكلدان ، فالفُرس ، فاليونان ، فالرومان ٠ ويروي لنا التأريخ ان يوليانوس الجاحد كان شديد العبادة للشمس مأخوذاً بتأمل اشعتها الساطعة في النهار ٠ فاذا توارت خلف ستائر الليل ، كان يجلس تحت الكواكب المتلمعة مخطوفاً بسنى جمالها ، فلا يعود يحس ولا يدري بشيء مما يُعمل حوله ٠ وله خطاب للالاه الشمس يُطنب في بيان كماله وافضاله ، فيصوره آية الكمال ، ومثال النظام ، ومحور الكائنات العقلية والمادية ٠ ثم ينهي خطابه على طريقة ما كان يسمع في المواعظ المسيحية ، يوم كان بعد قارئاً في كنيسة القسطنطينية ، فيقول : « اني ابتهل الى الشمس ، ملك الكائنات كلها ان يكافى، بلطفه عبادتي الخالصة له ، وان يجود عليَّ بحياة فاضلة ، وحكمة متناهية ، وآخرة هنيئة ، في الاجل الذي قسمه لي القدر ؛ وبعد هذه الحياة سعادة الطيران الى جواره والتملك هنالك الى الابد ٠ وان جلّت هذه النعمة عن ان استحقها ، فليتحْ لي ، أقله ، البقاء في حاشيته حِقبة طويلة من العصور المتتالية ! »

(٢) أنكسغور ولد في كازمينة سنة ٥٠٠ ق م ، وبعد ان طاف بلاد مصر اخذ يعلم في اثينا ٠ وممن تتلمذ له بريكليس واوريبد وثوسيديد وسقراط نفسه ٠ وهو اوّل من ارتفع الى فكرة الاه متميز عن الكون ، وأنبأ بكسوف

فتُزري بالقضاة، ظاناً انهم جَهلة، لا معرفة لهم بكتب انكسغور الكلزميني المشحونة من هذه الآراء. فما قد يأخذه الشبّان عني، في وسعهم ان ينالوه بدرهم، على الكثير، في المسارح، وان يضحكوا من سقراط ان هو تظاهر بانتحال تلك الامور، وهي على ما هي عليه من السخافة. نشدتك زفس اهذا اعتقادك فيَّ اني لا أومن بالآلهة بتةً؟

م. إي وحياة زفس انك لا تؤمن بتة.

س. انك لغير مصدَّق، يا مليتس، حتى عند نفسك، كما أرى. اجل، يا رجال اثينا، ان مليتس لوقح متكبّر ساقته الوقاحة والكبرياء وحداثة السن الى تنميق شكايته. وما مَثَله الأمثلُ رجل يُلقي أحجيَّةً معمّاةً ويقول: «هل يدري سقراط الحكيم اني اورد في دَعابتي اموراً متناقضة، وهل في استطاعتي ان اخدعه واخدع كل السامعين؟» وحقاً ان ما جاء في عريضته لمن الامور المتناقضة. فكأنه يقول: «سقراط مجرم بجحوده الآلهة، على انه يؤمن بالآلهة.» وانما ذلك عَبَث عابث، وقول باطل.

الشمس وخسوف القمر. فكان يعلِّم ان الشمس جِرم من الحديد والحجر، مشتعل؛ والقمر له سهوله، وجباله، واوديته كالارض التي نسكنها. وحين رُمي بجحود الآلهة وبلغه حكم القضاة عليه قال: «من عهد بعيد قد ابرزت الطبيعة الحكم نفسه عليَّ وعلى قضاتي!» وكان الناس يأخذون عليه تبديد ثروته في طلب الفلسفة فيجيبهم: «ان نقطة حكمة لخيرٌ من براميل ذهب!»

سقراط يعتقد بالالوهية

الا ابحثوا معي ، يا رجال اثينا ، فيتأكد لكم ان الامر على ما بسطته لديكم ، وانت فاجبنا ، يا مليتس . امـا انتم ، ايها القضاة ، فلا يذهب عن بالكم ما رغبت به اليكم ، أن تسمعوني بحلمكم ، ان انا جريت في دفاعي على سجيتي ومألوفي .

أبين الناس ، يا مليتس ، من يسلِّم بامور بشرية ولا يقول بكيان بشر ؟ فليجب ، يا رجال اثينا ، ولا يذهب في الجلبة كلَّ مذهب . أينفي احد الجياد ويسلم بخصائصها ، ام ينكر الزمّارين ويقول بادوات الزمر ؟ ان ذلك لضربٌ من المستحيل ، يا صفوة الرجال ؛ وان ابيت الجواب ، فانا اتولى تبيان الحقيقة لك ، ولهذا المحفل . ولكن ألا تجيب على هذا فقط ؟ ايمكن التسليم بالروحيات ونفي الارواح ؟

م . كلّا .

س . فلقد غمرتني جميلًا بجوابك ، ولو انك دُفعت اليه دفعاً . انك تقرُّ اني مسلِّم بالروحيّات واعلِّم بها ، حديثة كانت ام قديمة ؟ فانا معتقد اذن بالروحيات على رأيك ، وقد أثبتَّ ذلك بقسم في دعواك . فاذا كنت اسلِّم بالروحيّات فانا مسلِّم بالارواح ، بلازم الضرورة . اليس كذلك ؟ لا مجال للريب من حيث ان سكوتك ينطق عنك . او لا نسلِّم ان الارواح هي آلهة ، او ذريَّة الالهة ؟ ما رأيك ؟ أتسلم بذلك ؟

م . نعم أسلِّم به .

س . فاذا كنتُ أومن بالارواح ، كما أقررتَ ، وان هذه الارواح

أبعاض آلهة ، فقد صحَّ انك مُلغزٌ هزّالة يزعم اني اكفر بالآلهة وأومن بها في وقت واحد ، من حيث أومن بالارواح . وبعد فهب ان هذه الارواح تُنُول آلهة من عرائس البحر ، او غيرها من المخلوقات ، فمن من الناس يسلّم بانها من نسل الآلهة وليست بآلهة ؟ ان ذلك لضربٌ من المُحال ، كمن يقول ان البغال تتولد بين الحصان والاتان ، ثم ينكر وجود الجياد والاتن . فغيرُ خافٍ يا مليتس ، انك لم ترفع دعواك الا قصد تجربتنا ، ما لم تكن ضاقت بك السُّبُل لتأخذ عليَّ مأخذاً صحيحاً . واما ان كنتَ آليتَ على نفسك ان تثبت لواحد من البشر ، مهما خفّت حصاته ، ان الشخص نفسه في استطاعته ان يعتقد بالروحيات والالهيات ، ثم ينفي وجود الارواح والآلهة والابطال ، فذلك حتماً مستحيل .

الموت ولا العار

لا حاجة بي الى دفاع مُسهب ، يا رجال اثينا ، لأثبت لكم براءتي مما تجنّى به عليَّ مليتس في دعواه . حسبي ما أدليت به من الحُجج ؛ وكونوا على يقين مما قلته لكم ، انني رُميت بين الجماهير بشرّ عداوةٍ ، سوف تجر اليَّ حتفي ، متى ألقى وبالاً . فلا مليتس ، ولا انيتس يسببان هلكتي ، وانما وشاية وحسد الجماهير الغفيرة . وما اكثر ما قتل الحسد من اهل الفضل رجالاً ! ولسوف يتابع فتكه الذريع ما تتابع الملوان ، لاني لا احسب شرّه يقف عند سقراط ، في طغيانه .

ورب قائل يقول : « ألا تربأ بنفسك ، يا سقراط ، عن الإقدام

على أمرٍ قد يوردك موارد الهلكة ؟ » فأجيب مثل هذا جواب سداد : لا ريب أنك واهم ، يا صاح ، ان خُيّل اليك ان المرء الذي في طاقته ان يعود على الانسانية بعائدة خير ، يجوز له ان يحسب حساباً للحياة او الممات ، بدل ان يفكّر هل الذي يعمَلُه امرٌ عادل ام جائر ، وهل هو فعل رجل صالح ام شرير ؟ والا فقد غُضّ من قدر اولئكم الابطال والفرسان طراً الأُلى قضوا لدى ابواب طروادة ، كذا ابن ثيتيس الذي استخفّ بالخطر ازاء عار يتحمل مَضاضته ، يوم صاحت به أُمّه الالاهة وهو متحمّس لقتل هكطور(*) : « بُنيّ لقد هلكت ، إن انت انتقمت لقتل

(*) ان الالياذة كانت دستور كتبة اليونان ، ينسجون على منوالها ، ويستشهدون بآياتها وابطالها . ولم يستقل افلاطون عن هذا التأثير القوي ، فهو يستقي منها كثيراً بين بدائعه ومعانيه ، مهما يكن من تحامله وتحامل استاذه احياناً على الشعر والشعراء . وجواب اخيل هنا لأمه يُعدُّ من عيون قصائد الالياذة . وعنه يقول الشيخ البستاني « انه مِرآة ناطقة بشعائر الشهم الابيّ العظيم ، والصديق الوفي الحميم ، والابن الشفيق الكريم » ولقد اوحى الى الشاعر الفرنسي راسين ابياتاً رِقاقاً في مأساته «افجانيا» . ولا غنى النفس عن ايراد معظم القصيدة .

صاحت وسحّت على الخدّين عَبرتُها　　« اذاً حياتك كادت آهِ تنصرمُ
هلاك هكطور يتلوه هلاكُكَ لا　　مِرَى » فقال : اذاً ياحبّـذا الشَبِمُ
يا حبّذا الموت اذ غُلّت يدي سلفاً　　عن صَون إلْفي ، لمّا اشتدت الإزَمُ
فطرقلُ أودى ، ولم أبرز لجانبه　　اقيه من صدماتٍ تحتها اصطدمُوا
فلم اصدَّ زؤام الموت عنه ولم　　اردَّ عن فتيةٍ ، هكطورُ فلّهمُ
فالموتُ، فالموتُ، لا عَودٌ ولا وطنٌ　　اذ لم اهُبَّ الى الهيجا اصونهمُ

خلك فطرقل وقتلت هكطور ، فبُعَيدَ هكتور تعدُ منيتك » . سمع أخيل ذلك فاستخفَّ بريب المنون ازاء حياة الذُلِّ والتحوُّل عن الإيثار لصديقه ، فقال : « يا حبذا الموت بعد اخذ الظالم بظلمه ، فلا اظلُّ اضحوكة دون اساطيل الموَطَّرة ، وحملًا على ظهر الارض لا جدوى لثقلته ! » او تظن انه حفل اقلَّ حفول بخطر منيَّته ؟ ذلك هو السداد كلّه يا رجال اثينا ، لاني ارى واجب الانسان ان يستمرَّ على الحالة التي اختارها لنفسه ، او رتَّبه فيها قواده ، مكافحاً الاخطار ، لايأبه بتةً لسوى معرَّة الاثم والعار .

الثبات في تأدية الرسالة

اني لآتي امراً قبيحاً ، يا رجال اثينا ، ان كنت اقتحمت غمرات الموت ، شأن سائر الابطال ، في المراكز التي رتَّبني بها قوادكم في فوتيذة [١] ، وأمفيبولس [٢] ، وذيليوس [٣] ، واليوم يفصلني شبح المنيَّة ، او أيَّ خطر

(١) فوتيذة مدينة في مقدونية أخذها الكورنثيون سنة ٤٣٥ ق م واسترجعها الاثينيون سنة ٤٢٩ . في معاركها احتمل سقراط الفتى السيبادَ على ظهره وخلَّصه ، وكان جريحاً يكاد يقع في ايدي الاعداء .

(٢) امفيبولس من اعمال مقدونية . معارك الاثينيين فيها كانت آخر عهد سقراط بالحرب ، فقد كان له يومئذ من العمر نحو خمسين سنة .

(٣) ذيليوس مدينة من مقاطعة بيوتيا . في سنة ٤٢٤ اغار البيوتيون قربها على الاثينيين فقتلوا منهم ألفاً من « الكماة » (Hoplites) . يومئذٍ خلَّص سقراط الفتى اكسنفون من الهلكة كما خلَّص ألسيباد في فوتيذة وانسحب مع صديقه لاخيس وسَرِيَّة من الابطال امام خيَّالة الثيبيين . يقول المؤرخ الفرنسي دوروي (Duruy) : « بينما كان سقراط يظهر هذه البطولة الجريئة ، كان ارستوفان يشتغل في تأليف مهزلته « السُحُب » !

دونه عمّا ارصدني له ربٌّ ذَلف، كما أعتقد وافترض ، لكي اعيش عَيش الحكمة وامتحن نفسي والآخرين . لعمري ان تلك لفَعلة مستهجَنة ، ومما يسوّل لاعدائي الحق بان يقودوني الى المحكمة ، اذ اكون كفرت بالآلهة ، وجحدت الوحي وجلاً من الموت ، واعتقدت نفسي حكيماً وما انا من الحكمة في شيء . ولا أرى اتقاء الموت ، يارجال اثينا ، الا دَليلاً على ان الانسان يَظهر برداء الحكمة من غير ان يكون حكيماً ، فيشق لنفسه بمعرفة ما هو جاهل له . فليس احد يعرف ما هو الموت ولا ما يخبأه للانسان مما قد يكون أعظمَ الخيرات جميعها ، في حين ان الناس يَوجلون منه كانهم على ثِقةٍ أنه يخفي لهم أجسم الشرور كلها . أوليس من الجهل الفاضح ان يزعم الانسان معرفة ما لايدركه ؟ اما انا فاني مختلف رأياً عن هؤلاء الناس جميعاً ؛ وان كنت أربي عليهم في شيء من الحكمة ، فذلك اني ، لما كنت لا اعلم بكفاية ما هي اذيس ، فلا أفتات بمعرفة حقيقتها . بيد اني اعلم ان غِشيان المظالم ومكابرة من يفضُلنا ، الاهاً كان ام انساناً ، اثم وعار قبيح . فلا يمكنني حيالَ هذه الشرور المتيقَّنة ان أوجل وافرّ مما قد يكون لي فيه خيرات جمة . حتى لو عرض لكم ان تُطلقوني محقّقين مشورة انيتس الذي رأى من الواجب إمّا ان لا أحضر الى ههنا ، واما ان يُحكم علي بالموت بعد ما حضرت ، بدعوى اني إن أطلقت اقبل ابناؤكم على تعاليم سقراط ، وتأكد فسادهم جميعاً . فلو خاطبتموني بعد هذا وقلتم : « ياسقراط ، ان انيتس ليريدنا امره ، فنحن مسرّحوك على هذا فقط ، ان لا تعود الى المباحثة

والفلسفة ؛ فان عدت لقيتَ وبالاً ». فلو اطلقتموني على هذه الشريطة، اذن لصِحْتُ بكم : « يارجال اثينا اني اجلُّكم واحبُّكم ، ولكنَّ الله احقُّ بان يُطاع . وما دامت فيَّ نسمة حياة وتسنّى لي، فلن اكفَّ عن درس الفلسفة ، ولن اكفَّ عن أن احرّض وانصح كل واحد منكم مردّداً ما قد أَلِفت ترداده : ألا تربأ بنفسك، يا صديق، وانت اثينيٌّ من اعظم واشهر حاضرة، حكمة واقتداراً ، ان تصرف عنايتك الى الغنى وأسباب تنميَته ، بدلَ ان تقصُر نفسك على طَلَب المجد والشرف، ونيل الحكمة ، والتبصُّر في حقيقة نفسك لتزينها بزينة الكمال ؟ فان وجدتُ بينكم مُكابراً يدّعي رعاية الفضيلة ادعاءً ، فلن أجوز دونه في سبيلي الا بعد ان اباحثه وامتحنه وأُفحِمَه ، فان بدا لي انه لم يقتنِ الفضيلة ، بل يدّعيها لنفسه ، أُنبّته على قلّة اهتمامه بأمور تستحقّ عناية أوفر ، وعلى وفور نَشاطه في امور لا طائل تحتها . هكذا كنت افعل مع من ألتقيه من الشبّان والشيوخ الدُخلاء والصُرَحاء، ومع ابناء وطني اكثر من سواهم لانهم أمسُّ بي رَحِماً . ولا يخالجكم ريبٌ ان ذلك ما يقصده الله من وحيه، وليس في طاقة يدي ان اصطنع لمدينتكم معروفاً اجمل من تفرُّغي لخدمة الله ، بحيث لا يشغلني في تطوافي شاغل سوى ان احثّكم ، انتم الفتيانَ والشيوخ ان لا تؤثروا الاهتمام باجسادكم واموالكم على الاهتمام بالنفس ، لانها افضل جُزء فيكم[*] ، مردّداً على مَسامعكم ان الفضيلة لاتحصل من الغنى ، لكن

(*) ان في محاورات سقراط لشذرات تكاد تمتزج مع صفحات الوحي ، لما

الغنى والخيرات باجمعها ، عامة كانت ام خاصة ، تحصل جميعها للناس من

هنالك من سداد المعنى ، وبساطة التعبير ، وسموّ الادب الذي يرقى بالنفس الى ما فوق هذه الدنيا الفانية العابرة . وقلما يطالع المرء هذه الصفحات الرائقة ولا يحسُّ في نفسه بناهض ينهض به الى كل عاطفة سامية تنسيه عيشه وكيانه ، وتصوّر لديه جليّة ، ملامح الفضيلة والعدل والواجب . وفي شمول هذه الفِكَر وقداسة هذه التعاليم ما يجعل من سقراط رسولاً الهياً ليس الى أثينا فحسب ، بل الى اقطار المعمور باسره ، على حدّ ما قيل : « شيئان هما هذبا العالم ، النصرانية ، واللغة اليونانية » . ولا أصفى ، ولا اقدس من تعاليم سقراط بين كتبة اليونان . ولا احسبني مغالياً اذا قلت ان فيها شيئاً من عظمة اقوال الانبياء والرسل القديسين .

او ما هنالك تقارب كبير بين قول بطرس ويوحنا لليهود « احكموا انتم ، ما العدل امام الله ، ان نسمع لكم ام نسمع لله » (اع ٤ ، ١٩) وقول سقراط « ان الله احق بان يطاع » ؛ وخطاب القديس بولس في وداع اهل افسس « اني لم اكف عن ان انصح لكل واحد منكم بالدموع » (اع ٢٠ ، ٣١) وقوله الآخر « فليستمرُّ كل واحد على الدعوة التي دعي فيها » (١ كو ٧ ، ٢٠) واقوال سقراط التي تطالعها في هذا الفصل وسابقه ولاحقه ؟ ومن يسمع حكيم اثينا يحاور ابناء امّته في الشوارع : « لا تؤثروا الاهتمام باجسادكم واموالكم على الاهتمام بالنفس ، لانها افضل جُزء منكم » ولا يخال نفسه في سَفح من رُبى الجليل ، يسمع الحكمة الازلية تبشِّر الجموع الملتفّة حول الجبل ، كانها قِطَع غمام كثيفة : « لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون ، ولا لاجسادكم بما تلبسون . اليست النفس افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ؟ » (مت ٦ : ٢٥) فتلك تعاليم مقدسة سامية لا تفيض بها الّا نفس قديسة قد صفى جوهرها فتنزهت عن الارضيات ، وتناست امور الحياة ، وانقطعت لتأمل الحقائق الخالدة على نور العقل الالهي الصافي . ومتى نَشِط العقل البشري من رِبقة الجسد وتخلّص من شهواته ، ومخاوفه ، واوهامه ، وجهالاته ، فقد التقى بالعقل الازلي السامي ، ومثّل في اقواله واعماله صورة الله ومثاله ، لان معارف الانسان وعلومه كلها ، من مصدر واحد ، من تلك النَسَمة التي نفخها الرب الاله في انفه فصار نفساً حيّة ، وحيواناً عاقلاً .

الفضيلة . وفوق هذا اقول لكم ، يا رجال اثينا : صدقوا انيتس او انبذوا مقالته ، وأطلقوني او أبرزوا حكمكم فيَّ ، فتلك خطتي لا أتحوَّل عنها ، لو أُلجئتُ ان أموت مراراً .

سقراط رسول اثينا

فلا يثر ثائركم ، يا رجال أثينا ، وأقيموا على ما التمستُه منكم ، أن لا يعلوَ ضوضاؤكم لدى ما أقول ، بل ان تسمعوا لي ، فأني احسب أنَّ لكم فائدة في الاستماع . اني لأَراني مدفوعاً لان اخاطبكم بما قد يستوري غضبكم ، الا بحقكم لا تفعلوا ، واعلموا يقيناً انكم ، ان حكمتم علي ، وانا على ما ذكرته ، تُضِرُّون بي اقلَّ من ضرركم بانفسكم . فلا مليتس ، ولا انيتس يستطيعان ان يُلحقا بي مضرة ، فقد صحَّ عندي انه ليس في مقدور الشرير ان يمس رجلَ الخير باذى . فقد يُحكم عليَّ ، وقد أُنفى ، وقد يُذهب بحقوقي الوطنية ، امورٌ يظنها مليتس وغيره شروراً ، اما انا فلا ، وانما أعد شراً افظع ما يفعله خصمي الآن ، بمحاولته القضاء ظُلماً على رجل بريء . ولا يَتوهمنَّ احد ، يارجال اثينا ، اني انما ادافع عن نفسي ، في حين ان دفاعي هو لاجلكم خاصة ، لئلا تخطأوا الى موهبة الله ، بقضائكم علي . فإن انتم قضيتم بهلاكي ، هيهات ان يتيسَّر لكم الوقوع على آخر مثلي أعدَّه الله لاجل خير المدينة — واسمحوا لي بهذا التشبيه لو بدا مستهجناً — كما يُعدُّ المِهماز لجوادٍ هيكل ، كريم ، يُعوِزه لما هو عليه من البَدانة وضِخَم الُجثة ان يُحفَز به حيناً . فكأنَّ الله ارصدني ، لما يَعلم من سجيتي ، لحراسة هذه المدينة ، لكي أنهض هممكم ، واقنعكم ، موبخاً

كلُّ واحد منكم ، وقصدَ ان لا أكُفَّ عن الحَدَب عليكم ، في كل زمان، وكل مكان. فيا رجال اثينا ، ان مثل هذا المحسن قلَّ ان يتسنَّى لكم بسهولة ، فان تصدِّقوني تُطلقوني ! ربما زَعَجكم فَرطُ غَيرتي ، كالنِّيام الذين نُبِهوا من رُقادهم ، فضَربتم على يدي وأخذتم برأي مليتس وقضيتم عليَّ ، بلا اسف ، لكي تقعوا في سُباتٍ عميق ، ما امتدَّ لكم نَفَس الحياة ، إلّا ان يُشفق الله عليكم ويقيِّضَ لكم آخر مثلي . اما أني الرجلُ الذي أرصده الله لخير المدينة ، فحسبُكم دليلاً أنه ليس من عادة امرىء ان يتخلَّى عن شؤونه الخاصّة ، كما افعل منذ سنين جمة ، لكي أخلي ذَرعي لرعاية شؤونكم ، فادنو من كل واحد منكم كالأب او الاخ الاكبر ، قصد ان أعكِف به على الفضيلة . ولو أني غنمت من وراء ذلك مَغنماً ، او تقاضيت على نُصحي أجراً ، لصحَّ ان يكون ذلك دافعاً (*) . بيد انكم قد شهدتم ، انتم انفسكم ، ان خصومي الذين

(*) ان هذه الصفحة الحافلة باللطف، والاريحيَّة، ونزاهة المبشر، وغيرة الرسول، والتواضع ، ورحابة الصدر ، وعظمة النفس ، لتقرِّبُ رسول اثينا من رسول الامم ، وتُعيد الى الذهن صفحة مجيدة عاتب فيها القديس بولس اهل كورنتس : « لم اثقِّلْ عليكم، لاني لا اطلب ما هو لكم ، بل اياكم اطلب ؛ لان الابناء لا ينبغي لهم ان يَذخروا للآباء ، بل الآباء للابناء . وانا بكل سرور أنفق النفقات ، بل أُنفق نفسي لاجل نفوسكم ، وان كنتم مع كوني احِبُّكم اكثر ، تحبوني اقل ، فليكن كذلك . اني لم اكلفكم شيئاً ، غير اني لكوني ذا احتيال استرقتكم بالمكر . فهل غنمت منكم على يد احد ممن بعثته اليكم ؟ طالما تظنُّون انا نحتجُّ لكم ، ونحن انما ننطق امام الله في المسيح ! وكلُّ شيء ايها الاحباء لبُنيانكم . » (٢ كو ١٢ : ١٣ — ١٩) ومن عَرفَ ان سقراط كان ابن قابلة ، وكان يخاطب الاثينيين « ان أمي تُولّد اجسادكم

يتجرّمون علي كل الذنوب الأخرى لم يأتوا بشهادة واحدة أني تقاضيت او تطلّبت اجراً،وحسبكم من فقري شاهداً لا يرد على ما قدمته لكم.

لماذا سقراط يعتزل السياسة ؟

قد يستهجن احدهم مسلكي، كيف أشير بالخير في الشؤون الخاصة، وأسعى جدّ السعي، لا اقف دون غاية، في حين لا اتجرأ أن أختلف الى مُجتمعاتكم لِأبذل مشورتي فيما يتعلّق بخير الأُمّة. ان السبب في ذلك قد سمعتموه مراراً، وفي مواقف مختلفة، فان صوتاً(*) الهياً فائقاً، هو الذي كان يسخر به مليتس في دعواه، قد وافاني منذ الحداثة، فكفّني عما أردت محاولته، ولم يُغرني يوماً بمزاولة وظيفة، بل كان يحول بيني وبين السياسة. وانّ صدّه لي لهوَ في غاية الموافقة، فاعلموا يقيناً، يا رجال أثينا، اني لو رشّحت نفسي لمعالجة السياسة من بعيد

وانا أولّد ارواحكم» فقد ادرك ان حياة سقراط انما كانت لبنيان الاثينيين وتزيين نفوسهم بصنوف الفضائل الروحية، والادبية، والوطنية.

ومن يُمعن النظر في محاورات سقراط ورسائل القديس بولس يجد توافقاً كثيراً عمومياً في مناحي التفكير، وتمثيل العادات، والاخلاق، والآداب، مما يدل على ان الرسول نشأ بين هذه الآثار المدرسيّة. فقد يكون قرأ هذه المحاورات مع الشريعة، وترجمها كما نفعل نحن على مقاعد الدرس. لاسيا وان معلمه جمليئيل كان خبيراً بعلوم وآداب القدماء، فان التلمود يروي انه كان يخرّج خمس مئة تلميذ في الفلسفة اليونانية.

(*) ان هذا الصوت الالهي الفائق، الذي يتكلم عنه افلاطون، واكسنفون، وشيشرون، وقد كتب غيرهم فيه الرسائل المطوّلة، فهذا الصوت السماوي او الالهام الالهي الذي كان يسمعه الفيلسوف، لم يكن سوى الشريعة الطبيعية، وبكلمة، هو الضمير الجالس في اعماق النفس ليرشد القوى، ويحكم على الاعمال.

لهلكت اذن من عهد بعيد ، من غير ان أعودَ عليكم أو على نفسي بعائدة صالحة ولا يسؤكم إن شهدت بالحق امامكم ؛ فليس ينجو من قاومكم بنفس حُرَّة ، أو قاوم أيَّ جماعة ، ووقف سَداً في وجه المظالم والتعديات المتواترة في الدولة . لكنْ ضرورة محتومة على من وقف نفسه لمناصرة العدل ان يعتزل السياسة ، ولا يتعرَّضَ لامور الدولة ، ان شآء ان يُطيل أجله (*) .

(*) ليس كالشعب الاثيني سريعَ الانتقاض على حكامه ، كثيرَ الجور على حكمائه ، وعظمائه ، فيه كلف بالتبديل ، والتجديد ، والعبث بكل شيء . وهذا ما سوَّل للَّاتين صوغ مثلهم « احذر الاغريقي ولو في يده هدية ! » وقلَّ من مات بين الحكماء ، والخطباء ، والقواد في اثينا الا مذعوفاً او منفياً عن وطنه . ولقد صوَّر المؤرخ ثوسيديد اخلاق أمَّته ومِزاجها الدموي احسنَ تصوير حيث يقول : « ان الاثينيين شعبٌ لا يروقه الا جديدات الامور ، سريعُ التصوّر ، سريع الانجاز لما قد تصوَّره ، جرأته فوق قوته ، يغامر الى أقصى غايات المُنى ، من غير ان تنكسر عزائمه بين صروف الدهر . انهم شعب حَمِس ، يجبُ ان ينبسط الى الخارج . في النصر يسيرون قُدُماً لا يلوون ، فان غُلبوا لم ينكصوا الا قليلاً . يَبذلون أجسامهم كانها ليست لهم ، وافكارهم كأنها وقفٌ على الوطن . اذا أخلفتهم وجوه الآمال خُيِّل اليهم ان حقاً شرعياً قد انتُزع منهم واذا فازوا بمطامعهم استقلوا ما احتازوا ، ازاء ما يبقى عليهم تحصيله ، او يجتبيهم حقهم بانتظاره . انهم يستبدلون عزماً مخدوعاً بامل جديد . فهم وحدهم بين الناس يملكون نواصي آمالهم ، لمضاء هممهم ، فيما انطوت عليه نفوسهم . كلُّ ذلك يجري بين مخاطر وأنصابِ حياة مختبطة . لا تنكف هممهم تحفزهم الى مطالب جديدة حتى ليفوتُهم التمتُّع بما يملكون . القيام بالواجب هو ما يعرفونه من الاعياد ، اما حياة البطالة والرخاء ، فليست شراً اقل من حياة العمل والجهاد . وخلاصة القول ، انهم شعب لا يعرف الراحة ولا يُطيقها في غيره . » (تاريخ الاغريق ، المجلد الاول ، الفصل السبعون)

انتصار سقراط للحق

اني لآتيكم بالادلة السديدة تأكيداً لما قدمت ، ليس كلاماً بل اعمالاً على ما ترغبون . فسماع لما كرَّ عليَّ من الحوادث ، فتدركوا حقَّ الادراك اني لا اخشى في سبيل الحق شدَّة ولا موتاً . سأسوق اليكم احاديث دِفاعيَّة وثقيلة ، انما صادقة . اني لم أتبوأ ، يارجال أثينا ، منصباً في الدولة سوى اني اصطفيت عضواً في مجلس الشيوخ . وكان آنئذٍ سبطنا الانتيوخي [1] في نَوبة تمثيله في المجلس ، يوم قصدتم ان تحكموا مُجملًا على القوّاد العشرة [2] الذين لم يدفنوا القتلى في المعارك البحرية . وكان قصدكم

---

(١) جميع مدائن وبلدان أتيكا كانت مقسومة الى مئة وسبعين اقليماً تؤلف بعشائرها المختلفة عشرة أسباط . فبلدة ألوبة التي كان يسكنها سقراط كانت تنتمي الى سبط الانتيوخيين . وكل سبط من الاسباط العشرة كان يقدِّم خمسين نائباً الى مجلس الشيوخ فيتألف المجلس من خمس مئة شيخ ، كل فرقة من فرقه العشر تتسلم ازمَّة الحكم مدة خمس وثلاثين يوماً . والحاكمون يومئذ كانوا يتناولون طعامهم جملة على حساب الدولة ، في قصر عامّ يسمى البريتانة πρυτανεῖον او الثَّويلة θόλος . ورئيس المجلس كان المتقدم . فسقراط كان هو المتقدم يوم رفعت دعوى العشرة القواد الى الشيوخ .

(٢) هم العشرة القواد الذين انتصروا في معركة أرغينوسة البحرية على اللقدمونيين سنة ٤٠٦ ق م فشكاهم بعض الوطنيين ولا سيما كليستين انهم لم يدفنوا جثث القتلى . الا ان عاصفة صدَّتهم عن هذا الواجب المقدس الذي وكلوه الى ثرسيبولس وثيرمين .

هذا مخالفاً لما ينصُّ الشرع ، كما عَرفتم جميعاً في ما بعد . فنهضت انا وحدي بين الشيوخ ، وعارضتكم كي لا تأتوا عملاً يخالف الشرائع ، واقترعت لما يخالف قصدكم . ورغم انَّ خطباءكم كانوا على أهبة من وِشايتي ومنافذتي الى المحكمة ، ورغم ثورانكم وتعصبكم لهم ، فقد آثرت اقتحام المخاطر في جنب الشريعة والعدل على الانحياز اليكم ، وانتم تأبون النَصَفة ، من غير ان تمرَّ في نفسي عاطفة وَجَلٍ من بليَّة او منيَّة .

قد وقع هذا يوم كان الحكم الشعبي هو السائدَ في الجمهورية . فلما استتب الحكم للعظماء[1] أحضَرني الثلاثون الى الثَوِيلة[2] مع اربعة

---

(١) في السادس عشر من نيسان ، وهو عيد انتصار الاثينيين على الفُرس في معركة سلامينة ، قد نَسَفَ لِيسَنْدر أسوار أثينا ، واحتلَّ المدينة ، وشكَّل فيها حكومة الثلاثين الظالمة .

(٭) وفي اليونانيَّة θόλος هي بناء مستدير ينتهي على شكل قُبَّة ، حيث كان أرباب المشيخة يتناولون طعامهم جملة . ولا ريب ان الوضع العربي هو الوضع اليوناني عينه جاء على الصورة التي اقتضتها الصيغة العربية ، وان انحرف عن المعنى الاصلي قليلاً فمشتقاته تشهد عليه . فجماعة النحل المتثئة تسمى « ثَولاً » لانها تصبح على شكل قبة ، ولا عبرة بفتح التاء ، لان العرب قلَّما يتنبهون في التعريب لاصول الحركات . مثال ذلك « أُركون وطُغمة » بضم الهمزة في الاول والطاء في الثاني خلافاً للأصل ، وهو مفتوح او على ما يقابل الفتح عندنا « τάγμα, ἄρχων » وقد يكونون تركوا « ثُول » بالضم جمعاً لأثْوَل . وقل كذلك في معنى الفعل ، فالفعل اليوناني θολόω معناه « تحيَّر اضطرب » والفعل العربي كذلك : يقال ثال الرجلُ اذا

آخرين وامرونا بالذهاب الى سلامينة لنسوق لاون السلاميني (*) مخفوراً لينفَّذ حكم الموت فيه، وتلك كانت اوامرهم الى كثيرين لاشراك ما امكن من الناس في جُرمهم. فبرهنت يومئذ فعلاً لا قولاً، اني لم اكن احفِلُ بالموت بتاتاً، ولا بكارثة أخرى، وانَّ همي الوحيد أن أنكَّب عن الجور، وان لا اغشى سُبُلَ المآثم. وإن طغيان تلك العصبة المستبدَّة لم يَفتَّ في عضدي فيزيِّن لي مقارفة الظلم. لكن لما خرجنا من الثويلة توجّه الاربعة الآخرون الى سلامينة ليأتوا بلاون مخفوراً، واما انا فقد انطلقت الى بيتي. وما احسبني الا كنت لقيت حتفي لولا ان تلك الحكومة

حمق او ثَوِلت الشاة اذا اصابها عارض كالجنون فلم تتبع الغنم واستدارت في مرتعها.

وكم في لغة الضاد من أوضاع منقولة عن اليونانية وغيرها لا يدريها الا من عُني نفسه أمر التنقيب عنها. مثاله «كَفَل» وهو مُؤخر الدابة، معرَّب عن καυλός ومعناه ساق الغرسة، او طرف القناة المذرَّب (المروَّس) الذي يركّب فيه السنان، او مَقبض السيف. ولا شك في ذلك لأن المقطع الاول من الكلمة اليونانية، وهو الأصل، يدلُّ على الانتفاخ والاستدارة، وليس في العربية من مادة «كَفَلَ» ما يدلُّ هذه الدلالة. وهنا اذكر مقالاً لجهبذ من جهابذة المجمع العربي الدمشقي يدرس فيه قضيَّة التعريب فيحكم ويترخص في الحكم الى ان يقول «كذلك العناية الالهية جعلت للغات نواميس تساعد على نموها وتكاثرها» ولا احسبه الا قد جهل ان كلمة «ناموس» وجمعها «نواميس» هي اعجمية دخيلة بأبيها وأمها وجدَّيها!...

(*) لاون السلاميني هو اثيني كان قد حشد من الاموال ما وجَّه اليه عيون الظلَمة الثلاثين، فهرب الى سلامينة لينجو بنفسه.

عاجلها الزوال . وعندكم على ذلك شهود كثيرون .

رسالة سقراط نأرب اثينة

أو تراني كنت عشت هذه السنين الطويلة لو اني اشتغلت بالسياسة على ما يحقّ بالرجل الصالح دائباً على نجدة اهل البر ، مهتماً لذلك غاية الاهتمام ؟ هيهات ذلك يارجال اثينا ، فلن ينجُوَ من اهل النزاهة فرد واحد ! على اني في سحابة حياتي الفردية والسياسية ، ان كنت اشتغلت بالسياسة مرة ، قد ألفت خطّة واحدة لم أتعسّف فيها عن جادّة الحق ذهاباً مع امرىء ، او مع واحد ممن يَدّعي وُشاتي إنهم تلاميذي (*) . أجل إني لم أقم معلِّماً لاحد من الناس ؛ ولكن ان شاق احدَ الشبان او الكهول أن يستمع كيف آخذ بالكلام وأتمّ رسالتي ، فلم اكن انقبض عنه ، ولم أقصُر الحديث على من يحمل الي اجرة ، واصمت ازاء غيره ؛ بل كنت دوماً أنشَط لمسائلة الغني والفقير على السواء ؛ وان طاب لاحدهم ، فانا كنت اسأل وهو يجيب على ما اقول . وبعدُ فان كان بعضُهم اختطّ لنفسه خطّة الفضيلة او الرذيلة ، فليس من الصواب ان تعزى اليَّ خطّته ، لاني لم اتعمّد يوماً مهنة التعليم ، ولم اعلِّم احداً

(*) يلمح سقراط هنا خصوصاً الى ألسيباد وكريتياس اللذين كان الخصوم ينسبون عيوبهما الى علاقتهما بسقراط ، والى المبادىء التي كانا ينتحلانها عنه .

وان زعم احد انه تلقّن منّي او سمع في السرّ ما لم يسمعه الجميع ، فاعلموا يقيناً انه لا يقول الحق .

اثينه تبرئ سقراط

ولكن علامَ يطيب لبعضهم المكوث معي طويلاً ؟ قد علمتم السبب في ذلك ، يارجال اثينا ، لاني بسطت لكم الحقيقة كلها . فانّ سامعيّ يجدون غِبطة في امتحاني أدعياء الحكمة الاغرار ؛ وذلك لعَمري مشهد لا يخلو من الفُكاهة واللذّة ! وقد فُوِّض الي هذا الامتحان من قِبل الاله ، في الوحي وفي رؤى الاحلام ، وبكلّ الوسائل التي اعتادت الارادة الالهية أخذها لتُنهي اوامرها الى الانسان . وتلك اقوال صدقٍ ، يارجال اثينا ، لا اسهل من اثباتها . فان كنت حقّاً أفسد فئة من الشبيبة الغضّة ، واخرى قد افسدتها ، اذن لوجب على الشبان الألى جازوا سنّ الحداثة ، وادركوا اني أركبتهم الغرور في حياتهم ، ان يتألّبوا في هذا النادي ليكشفوا ما انطوى من امري وينتقموا من مساوئي . وان أبى هؤلاء ، فذوو قرباهم ، من آباء واخوة وانسباء كانوا تنبّهوا ، لو نالتهم مني اذيّة(*) . وها ان الكثيرين حاضرون ، وهم بمرأى مني في هذا الديوان ،

(*) اي أذيّة تنال الفتيان وآلهم من فيلسوف تقي قانع ، وقف حياته لخدمة الشبان وتخليصهم من حبائل الرذيلة ، ليعلمهم سبل الفضيلة ، ومعرفة الواجب نحو الوطن والوالدين ؟ فلقد التقى سقراط يوماً ، في شارع ضيّق من شوارع اثينا ، بالفتى اكسنفون فاعجبه منه وسامته واحتشامه . فسدّ عليه الطريق

وفي طليعتهم كريتون تربي وابن قريتي وابو كريتوبولس هذا

بمخصرته وقال له : « اين تُباع حاجات الحياة ؟ » وبعد ان اجابه اكسنفون ، سأله . « وأين تُتعلّم الفضيلة ؟ » ولما ان تحيّر الفتى ، قال له سقراط : « تعال اتبعني ، فانا أعلمك اياها ! » وان سقراط لهو خير شارح للوصية الرابعة في العهد العتيق . وهذا نمط من ارشاده لبكره لمروكليس ، وقد رآه غضب في وجه أمه ، نأخذه عن ذكريات اكسنفون لمعلمه من الفصل الثاني من الكتاب الثاني قال : « ايُّ الناس نال من العوارف مقدارَ ما ينال الابناء من والديهم ؟ فهم الذين أسدَوا اليهم نعمة الوجود ، ومنحوهم ان يتوسموا كلَّ الجمالات ، ويتمتعوا بجميع الخيرات التي يمنّ بها الله على العباد . ونحن نستنفس جميع هذه الخيرات بحيث يفرط كلنا بكل شيء سواها . انّ الاب يُعدُّ لابنائه كل ما يحسبه مفيداً لمعاشهم ، باقصى ما يكون من الجهد ، اما الام فتغذو طفلها وتتعهده بلطف وحنان من غير ان تتوقّع شيئاً من المعروف ، لأن الطفل لا يدرك من اين يأتيه الاحسان ، ولا يستطيع الاشارة الى ما يحتاج اليه . على انها تفتنّ في اكمال ما يفيده ويحمل اليه البهجة ، فتقوته زمناً طويلاً مقاسية الشدائد ، في الليل والنهار ، ولا تعلم هل تنال يوماً بعض هذه الافضال . ولا يقف برّ الوالدين عند القوت ، فعندما تبدو في الابناء كفاية للاستفادة يُفضي اليهم الاهل بما يملكونه من المعارف الصالحة للحياة ، وان هم دَرَوا ان غيرهم اكثر جدارة بتعليمهم ، اوفدوهم اليه منفقين النفقات ، وباذلين كل مجهود ليصيب ابناؤهم ما امكن من مناقب الكمال . »

وما اقرب هذه الفكر الجميلة من قول ابن الرندقة .

لو كان يَدري الابن ايَّة غُصَّة	يتجرَّع الابوان عند فراقهِ !
امٌّ تهيج بوجده ، حيرانة	وأبٌ يسُحُّ الدمعُ من آماقهِ
يتجرَّعان لبينه غُصص الردى	ويبوح ما كتماه من اشواقهِ
لَرَثى لامٍّ سُلَّ من أحشائها	وجزاهما بالعَذب من أخلاقهِ

وليسانياس السفيتي ابو إسخين الحاضر ههنا ، وأنتيفون الكَفسي ابو أبيجانس ؛ وغيرهم ممن كان اخوانهم معي في مجادلاتي ، مثل نيكوستراكس بن ثيوسذوتيدس – ولا حاجة بهذا الى مساعدة اخيه وقد اودت به المنيّة – وفرلوس بن ذيموذوكس وشقيق ثياجيس ، وأذيمنتس بن ارستون شقيق افلاطون هذا واياتوذرس شقيق أفلُذورس . وفي استطاعتي ان آتيكم بغيرهم كثيرين ممن وجب على مليتس ان يستشهد بواحد منهم ، ولا سيّما في دعواه . لئن كان نسي يومئذ فليبرز شهادته الآن ، اني راضٍ بها ، فليقل ، ان كان عنده للقول مجال . ولكنَّ الامر على خلاف ذلك ، يا رجال اثينا ، فإنَّ الجميع قد هبُّوا لنجدتي ، انا المُتلِف والمسيء الى ذوي قرباهم ، كما زعم مليتس وانيتس . فقد يكون لمن افسدتهم وجه من العُذر في ممالئتي ، اما الذين لم تصل اليهم يد فسادي من اقربائهم ، وكلهم رجالٌ قد تنفس بهم العمر ، فايُّ دافع يدفعهم الى نجدتي سوى العدل والحق الواضح ، ولانه ثبت لديهم انَّ مليتس ماكر غشَّاش ، وأني محق صادق .

سقراط يرفض استرحام القضاة

حسبي ، ايها الرجال ، فتلك حُججي في دِفاعي ، وما في وُسعي ان ازيده فهو على هذه الشاكلة . على ان بعضكم قد يحنق عند تذكُّره انه في مجاهدته جهاداً اقلَّ جهداً (*) ، فزِع الى الرجاء

(*) ان في الالفاظ اليونانية مشاكلة بارعة للمعنى لم تستطع الترجمة تأديتها كلها

والضراعة لدى القضاة ، بدامع هتانة، فأحضر بنيه[١] بين يديه واحتاط بذويه وجمع اصدقائه ليستجدي الرحمة ؛ بينا انا لا أعمِد الى شيء من هذا ، ولو اني مهدَّد ، كما ارى ، باعظم الاخطار . قد يفكر احدهم في هذا فيزداد عُتواً عليَّ ويغضب لذلك فيُلقي القرعة ساخطاً . فان كان بينكم مثل هذا ، ولا إخال ذلك ، أُجيبه برفق : ياصاحبي ، ان لي نَسَباً ، فلم اولد من سنديانة ولا من صخرة ، كما جاء في هوميروس[٢] ، بل من بشرٍ . فانَّ لي ، يا رجال اثينا ، أسرة وبنين

« ἀγῶνος ἀγῶνα ἀγωνιζόμενος » وافلاطون انما يتشبه في هذا بهوميروس الذي تعمَّد هذا الجناس مرات في الياذته ، كوصف دبدبة الجياد في النشيد العاشر ، ووصف السيل ووصف القتيل في النشيد الثالث عشر . وللعرب في هذا فنون كثيرة . فمن مشاكلات المرحوم شوقي قوله :

دقَّاتُ قلب المرء قائلةٌ له		إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني

وقوله الآخر :

ناقوسُ القلبِ يدُقُّ له		وحَنايا الأضلعِ مَعبدُهُ

(١) في اثينا وروما كان المشكوُّون يغالون في استرحام الحكام ، وبعث الشفقة في قلوب الحاضرين ، فيلبسون لذلك ثياب الحداد ويظهرون بكل مظاهر الأسى . ويروي كنتليان عن الخطيب الروماني غليكون انه حمل ولداً صغيراً الى دار القضاء ، ظاناً ان دموعه ستحنّن القضاة ، وكان وصيُّ الولد بقربه لكي ينبهه متى يجب عليه ان يبكي . وفيما الخطيب يدافع سأل الولد لماذا تبكي ؟ فاجابه من فوره : لان الوصيَّ يَقرُصني !

(٢) قالت فنيلوب لأوذيس ، قبل ان تعرفه : « انك لم تولد من سنديانة

ثلاثة[١] ، كبيرُهم فتى يافع ، واثنان لا يزالان في سن الطفولة ؛ بيدَ اني لن اسوق اليكم احداً منهم ليستشفع لديكم في براءتي . ولماذا لا ؟ لا شكَّ اني لم اسلك في ذلك ، يا رجال اثينا ، عن اعتداد بنفسي او ازدراء لكم : أمّا هل اخشى الموت ام لا فذلك شأن آخر . انما حِرصاً على سُمعتي وسمعتكم ، وتزكيةً لصيت المدينة ، لا أستحسن ان افعل غير ما فعلت ، في مثل هذه السن الطاعنة ؛ ولِما انتشر من صيتي ، سواء كان بحق او بغير حق ، من أنَّ سقراط يفوق عامَّة الناس في بعض المناقب . وإنه لمن العار حقًّا ان يكون المقدَّمون فيكم إنْ بالحكمة او الرجولة او في اي فضل آخر ، على ما شهدت حيناً بعضاً من ذوي الوجاهة يأتون ساعة الحكم عليهم عَجَباً عُجاباً ، كأنَّ المنيَّة المستهدِفين لها شرٌّ مستطير ؛ او كأنهم حسبوا انهم لو فسَحتم بينهم وبين الموت ، سيكونون من الخالدين[٢] . اني لأرى هؤلاء يلصقون العار بالوطن ، حتى

قديمة ، ولا من صخرة . » (الاوذيسية ، النشيد التاسع عشر)

(١) اولاد سقراط هم لمبروكليس ، وصُفرونيسك ، ومَنيكسين . ويؤكد سينكا انه لم يقم فيهم من يمثل في نفسه اخلاق والده الشريفة .

(٢) قال القديس اغوسطينوس في الفصل الثاني من « مدينة الله » : اني لاعلم انه لم يمت احد الا وقد عُقد أجلُه بالموت يوماً . والحال ان نهاية الحياة تجعل الحيوات كلها متماثلة ، طويلة كانت ام قصيرة ، لانه لا افضل ، ولا اسوأ ، ولا اطول ، ولا اقصر في ما قد غمره العدم . وماذا يَهمُّ الطريقة التي

ليسوغ للغرباء الوافدين ان يقولوا إنَّ النابهين بين الاثينيين في الفضيلة ، الذين يُكرمهم الشعب في تمجيدهم وتقليدهم أزمّة حكمه لا يختلفون في شيء عن النساء . فلا يجوز لنا ، يارجال اثينا ، ان نأتي هذه المحظورات مهما يكن شأننا ، ولا يجوز ان ترضوا عنّا ان اتيناها ، بل يجب ان تُعلنوا على رؤوس الأشهاد انكم تحكمون على الذين يظهرون بهذه المظاهر المسكينة ، ويجلبون الهزء على مدينتكم ، اكثر من حكمكم على الذي يتقدم صابراً وادعاً .

الاسترحام مخالف لقداسة الشرائع

فبصرف النظر عن الصيت ، لا ارى من العدل ، ايها الرجال ، ان يستعطف احد القاضي ويُفلت من الحكم باسترحامه ، بل عليه ان يعرض امره لديه ويحاول اقناعه . لانَّ القاضي لم يجلس على كرسي القضاء ليضحّي بواجبات العدل في محاباة الوجوه ، وانما تسلّم القضاء ليَفصِل بينها ، وقد آلى على نفسه ان لا يتصرَّف بالعفو

تنتهي بها الحياة ، اذا كان الميت غير ملتزم بعدُ ان يموت مرة ثانية ؟ وبما ان كل مائت يسير ابداً بين اعراض هذه الحياة ، تتهدده ميتات لا تحصى ، ما دام هو في شك من منيّته ، فلا ادري ما أفضلُ له أأن يقاسي الموت مرة واحدة بوفاته ، او ان يتخوّف كل ميتة ، وهو حي . ولكني لا اجهل ان الناس يؤثرون بجبانةٍ الحياة مع توقُّع ميتات جمة على ان يموتوا مرّة واحدة ولا يعودوا يوجلون بعد هذا موتاً . بيد أنَّ ما يدفعه الشعور الحِسِّي في ضآلته القصِفة يختلف عما يؤيده العقل بنوره الصافي . فلا يُعدُّ الموت رديئاً اذا سبقته حياة صالحة ، لانه لا يجعل الموت شرّاً الّا ما يتبعه »

كما يشاء، بل ان يحكم بمقتضى الشرائع . فلا يجوز ان نعوّدكم خيانة العهد، ولا انتم ان تتعوّدوا ذلك؛ والّا فكلانا لا يتصرف بمقتضى التقوى . فلا تتوقّعوا، يارجال اثينا، ان اسلك لديكم مسلكاً لا اعدّه صالحاً، ولا عادلاً، ولا وَرِعاً؛ وذلك، لعمرُ زفس، ما يَرميني به مليتس من الكفر والزندقة . فلو اقنعتكم انتم المُقسمين، واضطررتكم بالالحاح الى خيانة عهودكم، اكون بذلك قد علّمتكم الكفر بالآلهة، وشكوت نفسي في دِفاعي اني لا أومن بالآلهة . فسُحقاً للكفر، يارجال اثينا! اني اعتقد بالآلهة اكثر من كل واحد من خصومي، والى الله انا مفوِّض دعواي (*) واليكم، لتحكموا بما فيه خيرٌ لي ولكم .

سقراط كاد يفوز في الاقتراع

لن يأخذني الأسى، يا رجال اثينا، من هذا الحادث، أعني قضاءكم عليّ، لأسباب جمة: فما هو حادث لم يحدث اتفاقاً . على اني اقضي العَجَب من عدد الاصوات في كلا الفريقين . فلم يَدُر في خلدي ان تكون على هذا التقارب، بل كنت اظنها عظيمة التفاوت . فعلمت الآن حقاً انه لم يعوزني سوى ثلاثة اصوات لانجو . فقد امنّي النفس

(*) ان في استسلام سقراط لمشيئة الله والقضاة ما يذكِّر بنبوة ارميا على السيد المسيح : «فيارب الجنود، الحاكم بالعدل، الفاحص الكلى والقلوب، اني سأرى انتقامك منهم، لاني اليك فوّضت دعواي .» (ار ١١، ٢٠)

أني نجوت من مليتس . بل من الواضح للجميع ان مليتس ، لو لم يتحزّب انيتس وليكون في شكايتي ، لوجبت عليه غرامة الف درهم من حيث انه لم ينل خُمس الاصوات .

سقراط يقترح ان يطعم على حساب الدولة

اذن فهذا الرجل يقترح لي الموت جزآء ، فليكن ! فما تُراني اقترح (*) عليكم بدوري ، يا رجال اثينا ؟ أليس ما هو جدير بي ؟ ماذا ؟ فأي عذاب يجدر بي ان اقاسي ؟ وايّ غرامةٍ اغرَم لاني لم أُخلد الى عيش الرَخاء في حياتي ، بل تخلّيت عما يتهالك عليه الكثيرون ، من طلب الغنى ، ومصالح الأُسرة ، وقيادة الجيوش ، والخطابة في الجماهير ، وغيرها من المناصب ؛ ولم أُوضع في الدسائس والاحزاب المدنية حاسباً نفسي اودع من ان تكون بنجوة بين هذه الاشراك الذميمة ، فلم اعمد الى مزاولتها ، في حين لا تعود عليكم وعليّ بكبير فـائدة ؛ لكني أشرطتُ نفسي لخدمة كل واحد بمفردهِ اجلّ الخدمة ، مجتهداً في اقناع كلٍّ منكم ان لا يقدّم شيئاً على الاهتمام بنفسه ، بل ان يَبذل قُصارى الجهد في ممارسة ما يسمو به الى الفضيلة والحكمة السنيّة ؛ اذ لا يحسُن ان تُصرفَ العناية في شؤون الدولة دون الاهتمام بالدولة نفسها ، وهكذا في سائر الشؤون . فماذا استأهل على هذه الحال ؟ لا بدّ انكم تجازوني خيراً ، يا رجال اثينا ، اذا كان لا بدّ من الجزآء . وجدير بكم

(*) في الجنايات التي لم يعيّن القانون عقابها ، كان للمدّعي ان يَعرض العقاب ، والمدّعى عليه الذي ثبت عليه الجرم يختار ما يحسبه موافقاً .

ان يجيء احسانكم ملائماً لحالتي . وماذا يلائم رجلاً فقيراً مُحسناً يحتاج الى اخلاء ذَرعه ليتوفر على نُصحكم ؟ لا أفيَد له ، يا رجال اثينا ، من ان يُطعم في البريتانة . وانه لأجدر بذلك من المجلّي بينكم في سباق الخيل ، او العِجال ذات الجوادين او الثلاثة او الاربعة ، في الالعاب الاولمبية (*) . لان هذا يحبوكم سعادة خيالية ، اما انا فاجعلكم حقاً من

(*) رتَّب هذه الالعاب الأُولمبية إفيتوس ملك الألين سنة ٧٧٦ ق م . وكان يُحتفل بها اكراماً لزفس كل اربع سنوات مرَّة في مقاطعة اولمبيا . فكانت اشبه بسوق عامة تتجمع فيها القبائل الاغريقية المختلفة للتداول في الشؤون العامَّة ، وقصد التمرُّس في الرياضات والمعارك التي هي صورة للحرب والجهاد . والاغريق اعتنت كلَّ العناية في تنظيم وجلالة تلك الحفلات مما تمتعت بحريتها . فاحراز خَطَر السبق في الالعاب الاولمبية كان غاية المجد ، حتى قال هوراس انها كانت تسمو بالمنتصر الى مرتبة الآلهة . وقال الشاعر الغنائي بندار يخاطب مجاهداً منتصراً : لقد فزت بالمفاخر كلِّها ، فلا تطاول زفس في معاليه Μὴ μάτευε Ζεὺς γενέσθαι. Πάντ᾽ ἔχεις

ومجمل هذه الالعاب كان الحُضر ، والسباق على ظهور الخيل ، وبالعجال ، والصراع ، والملاكمة ، والكرة ، والقفز . واشهرها سباق المركبات لانه كان مخصوصاً بالملوك والاشراف والابطال . فقد سابق فيلبس المكدوني فيها فسبق ، اما الاسكندر فمشهور جوابه لمن دعاه للسباق : ائتني بملوك يسابقون فأُسابقهم ! واشهر من أغرم بهذه السباقات ألسبياد الذي خلَّد انتصاراته الباهرة شاعرُ المآسي الكبير اوريبيد بمنظوماته الرائعة . وكانت جائزة المنتصر اكليلاً من زيتون مع سَعفَة نخل . وبقيت الشعوب الاغريقية مفتونة بهذه المشاهد وما يتبعها من مظاهر الأُبهة واستماع الخطباء والشعراء الى عهد النصرانية . وللقديس يوحنا الذهبي الفم تعريضات جمة بهذه الملاهي وما يأتلف معها من اسباب الخلاعة .

ابنآء السعادة ؛ وليس ذلك في حاجة ان يُكفَل قوته ، واما انا ففي حاجة ، واي حاجة . فان كان لا بد ان اجازى حق الجزآء فجزائي ان أطعم على حساب الدولة .

سقراط لم يسئ الى احد فلا يسيء الى نفسه

ولعلّي ابدو لكم فيما اقول صَلِفاً متكبراً شأني في الاستعطاف والضراعة . كلّا ، فليس الامر كذلك ، يا رجال اثينا ، بل هو على ما أبسطه لكم . اني معتقد انني لم أتعمَّد الاساءة الى احدٍ من البشر ، ولا احاول اقناعكم لانَّ زمن حوارنا قصير . واحسب لو كان الشرع عندكم شأنه عند غيركم من الامم ، لا يُجيز حكم الموت في يوم واحد(*) بل يرجئه الى ايام كثيرة ، اذن لاستطعت ان اقنعكم . فليس من السهل دفع تمائم جسيمة ، في فترات قصيرة . امّا وانا على يقين جازم اني لم أسيء الى احدٍ ، فحريٌّ بي ان لا أسيء الى نفسي ، بان احكم اني مستحق العقاب ، وتجرُّع مضاضته . وبعد فما الذي اتفزَّع منه ؟ أتحمَّلَ ما يقترحه لي مليتس ، وانا كما قلت لا ادري أذلك خير ام شر ؟ افاستبدله بما هو شر اكيد فاحكم به على نفسي ؟ أأختار السلاسل ؟ وما حاجتي الى عيش السجن مستعبداً لحكم الاحد عشر ؟ ام لعلّي اختار الجزية فاتقيَّد الى ان أفيَها ؟ وهذا ما قلته الساعة ، فلا فضة عندي اجود بها . أأختار النفي الذي ربما يُترقَّب لي ؟ ولكن هل أغرمت بالحياة كل هذا الغرام ، فلم اعد افكّر انه ان كنتم انتم ابنآء

(*) في اثينا لم تكن الدعوى تمتد الى اكثر من يوم واحد .

وطني لم تتحملوا احاديثي وكلماتي ، بل وقعت في خواطركم موقعاً سمجاً ثقيلاً ، فهممتم بالتخلص منها ، فليت شعري هل يطيقها الغرباء باوفر سهولة ؟ هيهات ذلك يا رجال اثينا !

ولتلك حياة جميلة لعمري ان أُخرَج من اثينا في هذه السن ، لاتقلّبَ بين مدينةٍ ومدينةٍ طريداً شريداً ، وانا عالمٌ اني حيثما توجهت سيلتفُ بي الشبان ليستمعوا الى احاديثي استماعهم اليها في وطني ، فان رددتهم اقنعوا اولياء امرهم بطردي ، وان تركتهم يقدمون اليَّ ، حكَمَ آباؤهم واقرباؤهم بنفي صوناً لشبيبتهم .

سقراط لا يصمت عن حديث الفضيلة

وربَّ قائل يقول الا تستطيع يا سقراط بعد ذهابك ان تصمت وتعيش بهدوء ؟ ان من العسير جداً اثبات هذا الامر لنفرٍ منكم . لاني لو قلت لكم ان في ذلك تنكباً عن طاعة الله فلا يمكنني معه ان اعيش معتزلاً ، لما صدقتموني بل حسبتموني مازحاً ؛ ولو قلت ان اعظم ما يأتيه الانسان من الخير ان يستفيض كل يوم في احاديث الفضيلة(*)

(*) ان اندفاع سقراط الى التحدث عن الفضيلة ليذكّر بغيرة الذهبي الفم ، ذلك الرسول العظيم الذي لم يملَّ من حديث الفضيلة يوماً ، فخلّف ما لم يخلّفه سواه من الخطباء ، ثماني مئة وثمانٍ وسبعين عظة كلُّها ترسم باجمل الالوان والطفها صنوف الفضائل والكمالات المسيحيّة . فحيناً كان ينهض من فراش الألم ليذهب الى مجتمعات المؤمنين . ولقد صاح بهم مرّة في خطبة له على زلزالٍ المَّ بانطاكية : «منذ ما استُفتح الخطاب زالت المشقة ، ومنذ ما بدأ التعليم ولّى العناء ؛ ان المرض والتعب لمن لوازم الجسد ، اما التعليم فهو للنفس فلاح وشفاء . وبقدر ما تفضل النفسُ الجسدَ ، تفوق مفاخرها

وما اليها مما كنتم تسمعونني اتحاور فيه ممتحناً نفسي والآخرين، لان حياةً

فضلاً وشرفاً . . . لم نفتأ حتى الساعة مسمَّرين على السرير ، بيد ان الله لم يشأ ان نهلك جوعاً الى النهاية ، فان جوعكم هو حرمانكم السماع ، اما نحن فنجوع يوم لا نبشِر بالكلمة ، شأن الام المريضة التي تفضل غالب الاحيان ان ينشِف ابنُها ثديها على ان تراه يذوب جوعاً ! »

وان سقراط ليجعل من الحياة فرصة لامتحان النفس واستكشاف دخائلها ، لاصلاح معايبها وتحليتها بحلى الفضائل ، حتى كأنَّ اليوم الذي لا ينطوي فيه الانسان على نفسه يتبصَّر في كيانه ومآله ، ويعمل على تقويم معرفته واصلاح حاله ، ليس من ايام عمره βίος οὐ βιωτός ، وانما هو غصن يابس لا يُطلع ثمراً في شجرة الحياة . قد كان فيثاغورس الحكيم يأمر تلاميذه ان يفحصوا ضمائرهم عند كل مسآء ، بيد انه لم يذهب في ذلك الى هذا الغُلو . وما احسن ما قال بصويت في هذا المعنى ، في خطاب له على المحبة الاخوية : « اكثر العلوم ضرورة في الحياة البشريَّة ، معرفة الذات ، ولقد اصاب القديس اغوسطينوس حيث قال انه خيرٌ للانسان ان يعرف معايبه من ان يثقف جميع اسرار الممالك والدول ، ومن ان يدرك حلَّ جميع ألغاز الطبيعة . فهذه المعرفة اكثر الاشياء جمالاً ليس بقدر ضرورتها فحسبُ ، بل لأنها اندرها جميعاً . نسرّح نظراتنا الى البعيد القاصي ، وفيما نحن متمادون في افكار لانهائية ، نُفلت نحن من أنفسنا . كلُّ الناس يدرك نقائصنا ، الا نحن فلا ندركها . وشيئان هما يصداننا عن ذلك : فأولاً ننظر الى ذواتنا عن قرب ماسّ فتختلط العين مع الموضوع ، فلسنا مجرَّدين بحيث ننظر الى ذواتنا نظراً فاصلاً فنرى نفوسنا مَلياً . ثانياً وذلك غاية الاضطراب ، لا نشاء ان نعرف ذواتنا الا من الجهات الحسنة . ننعي على المصوّر الذي لم يحسن ستر عيوبنا ، ونؤثر الا نرى سوى ظلنا وصورتنا مهما يبدُ فيهما من نزر الجمال على ان نرى شخصنا عينه مهما يبدُ فيه من العيب » .

لا امتحان بها ليست من عمر الانسان ، تنازعتكم الشكوك في صدق مقالي ؛ على انَّ الذي احدثكم عنه هو حقٌّ وان عزَّ عليَّ اثباته . لم آلف الحكم على نفسي إنها مستوجبة العقاب ؛ فلو كنت ذا مالٍ لحكمت على نفسي بجزيةٍ اقدر على وفائها من حيث لا يمسُّني أذى ، لكنَّما ... فلا مالَ لي ان لم تفرضوا عليَّ ما استطيع اداءه[١] ، فقد يكون في وسعي ان أؤدي لكم نحو وزنةٍ[٢] من الفضة فانا اقترح هذا المقدار . على انْ

---

(١) حُكم مرَّة على فتى لقدموني بالموت ، فسار بشوش الوجه ضاحكاً . ولمَّا سأله واحد من اعدائه « اتحتقر شرائع ليكورغوس ؟ » اجاب « اني مديون بشكر نعمه الكثيرة ، لأنَّه حكم عليَّ بجزية استطيع اداءها بدون ما اقتراض ! »

(٢) هذه كانت ثروة فيلسوف اثينا ، اثنان وتسعون فرنكاً وثمانٍ وستون سنتيماً . فما هو بأغنى من بولس الرسول الذي كان مع اهتمامه بجميع الكنائس ، يشتغل بصنع الخيام « ليخدم حاجاته وحاجات من معه . » واحسبه حرياً ان يقول قوله « نحن فقراء ونغني كثيرين » . فما كان انبل اولئك الفلاسفة الزاهدين الذين ملأت القناعة شعاب نفوسهم ، وشغل طلب الحكمة اذهانهم فلم يبقَ من متَّسع للاهتمام بحطام الدنيا امثال فوسيون الذي بعث اليه الاسكندر بركائب محمَّلة ذهباً فاكرم الفيلسوف وفادة الرسل ، وعند الصباح قال لهم : اعيدوا هذه السبائك الى مولاكم فهو امسُّ حاجة اليها مني !

ومن جميل ما يروى عن سقراط انه شهد يوماً ألسبياد يفتخر بعقاراته الواسعة في ارباض اثينا ، فبسط امامه مصوَّراً جغرافياً وقال لتلميذه « ارني موقع أسيا ! » فدلَّه ألسبياد على تلك القارَّة العظيمة . — حسن فاين الاغريق ؟ « فدله على الاغريق . » وما كان اصغرها بلداً بالنسبة الى أسيا ! — « ولكن اين فيلوبونيسيا ؟ فاجتهد ألسبياد

افلاطون الحاضر هنا ، يا رجال اثينا ، وكريتون ، وكريتوبولس ، وابولوذورس يرغبون اليَّ ان يكون اقتراحي ثلاثين وزنة وهم يضمنون دفعها : اذن فهذا اقتراحي وهؤلاء هم الكافلون لتأدية الفضة .

قضاة سقراط بقضوه على نفوسهم

يا رجال اثينا انكم لعدم صبركم زمناً يسيراً ، سوف تتوافر ملامتكم وفضيحتكم عند كلّ من يودّ الطعن في هذه المدينة ، لانكم قتلتم سقراط الرجل الحكيم . فسيدعونني حكيماً ، وان لم اكن حكيماً ، توبيخاً لكم . فلو صبرتم قليلاً لتمَّ لكم ما اردتم عفواً ، فانتم ترون باعينكم انَّ حياتي قد اوغلت في مراحل الأيام ، وتكاد تشارف الموت . ولا اسوق حديثي الى جميعكم ، بل الى الذين اقترعوا لي قرعة الموت . فاليهم اوجه هذه الكلمات : قد يتمثَّل في نفوسكم ، ايها الرجال ، اني انما عثرت لانقطاع ادلّة اقنعكم بها ، لو علمت انه يجب ان اتوسل بكل وسيلةٍ ، وآخذ بكل برهان ، لانجو من الحكم . فلقد خاب ظنكم ! اني لم اعثر لفراغ يدي من الادلّة والبراهين ، وانما عثرت لعزوفي عن الجسارة والقحة ، لاني لم اشأ ان اخاطبكم بما يُطرب مسامعكم من عويل وبكاء ، ورثاء ، وان اقول وافعل اموراً جمّة غير هذه مما تعودتم استماعه من الآخرين ، وانا لا أراه جديراً بي ، كما ذكرت . فقد علمت

حتى وجد تلك النقطة الصغيرة على المصوَّر . — واين اتيكا ؟ » على ان اتيكا تكاد العين لا تستقر عليها . فقال سقراط « هات الآن فارني اين تتبسَّط املاكك تلك الرحبة ؟ » فاطرق السبياد خجلاً من فخاره الباطل .

آنئذٍ انه غير جائز للمرء ان يأتي مـا لا يجدر بالرجل الحرّ إتيانه ، قصد التخلص من التهلكة . ولست نادماً الآن على ما سلكت من سبيل دفاعي ، فاني أوثر ان اموت بعده على ان اعيش في غيره ، لانه لا يجوز في القضاء ، ولا في ساحات الوغى ، اخذ كل سبيل ، سوآء كان لي ام لآخر غيري ، فِراراً من الموت . ففي معامع القتال ليس من مقاتل الأ ويمكنه الهرب [1] من وجه الموت ، ان هو القى بسلاحه واقبل على الترجي والتذلل لدى الاعدآء ، اذ في كل خطر سبيل للنجاة من الموت لمن يقدم على كل قولة وكل فعلة . فليس من الصعب ، ايهـا الرجال ، ان نفرّ من الموت ، بل الصعوبة كلها ان نفرّ من الاثم ، لانه اشدّ سرعة من الموت . فانا اليوم شيخ عاجز بطيء ، فادركني ابطأ العادِيَين ، اما خصومي وهم اشدآء سِراعٌ فقد أدركهم اسرعهما ، أي الاثم ... وبعد فاني ذاهب لاتجرّع كأس الموت الذي قضيتم به عليَّ .

---

(١) اكبر عار كان على الاثيني ان يهرب من وجه الحرب ، ومن دفعته الجبانة الى النكوص فكان يعرض امام الجيش مستنداً الى مجنّه ، ويمنع عن سائر الوظائف ، ويحرم حق الزواج . والفتى الاثيني كلُّ مـا يشهده من تمثيل او رياضة او رقص او مساجلة ، انما كان ليعوّده القوّة والنشاط والجرأة في ساحات الوغى . وعند مغادرته المدرسة كان يقسم « ان لا يهين سلاحه المقدّس ، ولا يخذل رفيقه في الجندية سـاعة النزال ، بل يجاهد في سبيل الذود عن حرمة الهياكل المقدّسة والخير العام ، سواء أكان وحده ام مع غيره ، وان يغادر بلاده في حال احسن من الحال التي وجدها عليها ، وان يطيع حكّام البلاد وشرائعها ويدافع عنها اذا اقتضت الحال ، وفي الختام كان عليه ان يكرّم ديانتها »

و كذلك هؤلاء . فقد أوجب الحق عليهم تحمل العار والظلم ، فانا راضٍ بعقابي ولا احسبهم الا كذلك . فقد تكون الامور مدبرة هذا التدبير ولا احسبها الا واقعة موقعها .

سقراط يتنبأ على قضاته

وبعد فأراني مدفوعاً لأبلِّغكم نبوءتي ، يا ايها الذين ابرزوا في حكمهم ، فلقد وصلت من الحياة الى حدٍّ تفيض فيه روح النبوءة[1] على الناس المشارفين حمامهم . فاقول لكم ايها الرجال الذين حكمتم بقتلي انكم ستُدركون ، وحياة زفس ، عقاباً اشدَّ من الذي نفذتموه فيَّ[2] .

(١) كان القدماء يعتقدون ان الانسان بقدر ما تخمد مشاعره الجسدية ، ويقرب من اجله ، يفيض عليه روح العِرافة والنبوءة ، لأنه يتقرب من روح الالوهة كما تنبأ فطرقل وهو محتضر على دنوّ أجل هكطور ، وكما تنبأ هكطور على دنو أجل اخيل . ويقول شيشرون في الفصل الثلاثين من كتابه الاول على العرافة : « عندما يكون الروح كانه معتزلٌ ومنقطع عن ملابسة الجسد ، يتذكر الماضي ، ويميّز الحاضر ، ويرى المستقبل . إن الجسد يكون في الكرى كأنه ميت ، بينما الروح ملآنٌ حياةً ونشاطاً ، ويتوفر له ذلك بعد الموت عندما يتحرر من ربقة الجسد . فكلما ازداد الموت دُنواً ازداد الروح تقرباً من الالوهة . كما يُشاهد ذلك في من أصابهم مرض قتّال ، فانهم يدركون ميقات أجلهم . »

(٢) يا للعدالة ! ما كاد سقراط يذوق مَصرعه حتى افاق الاثينيون من غفوتهم ، فرافعوا شكاته الى القضاء ، وناقشوهم حساباً شديداً عن موت حكيمهم التقي . فحُكم على مليتس بموت ذريع ، وعلى عصبته بالتشتت والجلاء . ولقد رفع الاثينيون لسقراط في هيا كلهم تمثالاً عظيماً من الشَّبَه . ولكن ان كانت تهدَّمت تلك المباني والتماثيل ، فقد بقيت محاورات افلاطون ماثلة بكل عظمتها وجمالها تمثالاً جباراً يُخلِّد مع الايام والليالي ذكر سقراط الحكيم .

فلقد فعلتم فَعلتكم وفي ظنكم ان تتنصَّلوا من تأدية الحساب عن حياتكم. بل سيكون لكم عكس ما ظننتم كما قلت: فسوف يقوم في وجوهكم موبّخون اوفر عدداً ، انا كنت أضبطهم من حيث لا تَدرون ، وسيكونون اشدَّ قسوةً وجفاءً ، على مقدار مَرَحهم في الشباب ، فيتعاظم بذلك غمُّكم غمّاً . فان حسبتم انه يكفيكم ان تقتلوا الناس لتمنعوا الموبِّخ أن يوبِّخكم على مسلك حياتكم الاعوج ، فقد ساء ظنكم وانها لوسيلة غير فعَّالة ، ولا شريفة ، فخير الوسائل وايسرها هي ، لا ان تقصروا الناس قصراً بل ان يؤهِّب المرء منكم نفسه لان تزداد براً وصلاحاً . اما وقد تنبأت عليكم ، يا قضاتي ، فاني راحل .

سقراط يشكر مبرئيه ويطمئنهم عن موته

على انه يطيب لي ان اتحدث الى الذين شهدوا ببراءتي عمَّا وقع ، بينما الاراكنة منصرفون الى وظيفتهم ، ولم أُسقْ بعدُ الى النِطع . فالبثوا معي ايها الرجال ، ما اتاح لنا الوقت ، فلا مانع يمنعنا من التحدث معاً والنُهزة موفورة . فاحبَّ ان افضي اليكم ، أنتم اصدقائي ، بما وقع لي واشرح لكم معناه . اجل ايها الرجال القضاة ، وانا ادعوكم قضاة بحق ، فلقد وقع لي امر يقضي بالعجب . فذلك النداء السري ، صوت الالوهة ، الذي ما زال يهجِس في خاطري ، كل ساعة ، ويزجُرني غالباً في سفاسف الامور متى اعتزمت منكراً ، فالآن وقد دهمني ما ترون ، وما يُظَنّ ويُعتقد أدهى المصائب ، لم يعترضني هذا الصوت الالهي حينما تركت مسكني ، في الصباح ، ولا في صعودي الى هذه المحكمة

ولا في موضعٍ من دِفاعي ، عندما كنت أهمّ بقول شيء . وقد كان يقاطعني مراراً اثناء احاديث أخرى . اما اليوم فلم يعترضني في شيء من أمري ، سواء في قولٍ او عمل . فما السر في ذلك يا ترى ؟ سأبديه لكم : ذلك ان ما حدث يُرجح لي فيه الخير ، وإنا لنُخطئ عندما نظن الموت شراً [1] . انّ لي في ذلك دليلاً بيناً ، فلا احسب الصوت المؤالف إلا كان عارضني ، لو كنت مُقدماً على غير الخير .

وإذ عوفب الصديق فرجاؤه مملوء خلوداً

لنبحث في الامر فنرى هنالك ما يكبر الرجاء بان الموت خير [2] . ان الموت واحد اثنين : فاما ان المائت يصير الى عدم ، ويفقد كل حس للاشياء ، واما أنه ، على ما يُقال ، تغير يطرأ على النفس وينتقل بها من هذا

---

(١) يذهب الفلاسفة القدماء مذهب الغلوّ في اثبات ان الموت ليس شراً ولا عقاباً ، بل هو نعمة كريمة من لدن الآلهة . ويخصص شيشرون الاولى من « تسكلانياته » الخمس لتقرير هذه القضية ببراهين وشواهد يحشدها ، كعادته ، من حكماء الاغريق . ولكن مهما يكن من تلك البراهين والشواهد فانها مردودة ببرهان الشاعرة الغنائية سَفوَةَ Sapho الذي يورده ارسطو في الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني من « بيانه » « انما الموت شرٌ ، والدليل على ان الالهة هكذا حكموا ، هو انه ليس بينهم من اراد ان يموت يوماً » .

(٢) هذا الفصل بجملته ينسخه شيشرون في « تسكلانيته » الاولى ، كما يتحدّى غيره في سائر مصنّفاته . ولو استطعنا « الوقوف على المصنّفات الباقية والبائدة من كتب اليونان ، فنطالب شيشرون بما اطلق يده فيه من غررها ، لما بقي شيء تستقلّ فيه

العالم الى عالم آخر . فان صحّ انه فقدان كل الشعور ، وانه رَقدة[1] لا يرى فيها النائم حُلماً ، فلا نزاع ان الموت ربح عظيم ، واحسب لو انّ الانسان نام مل، جفنيه ليلة واحدة ، من غير ان تزعجه الاحلام ، وقابل بتلك الليلة ايام حياته ولياليها ، وسئل بعد الروية كم يوم وليلة قضاها في حياته اعذب واهنأ من تلك الليلة ، فلا اشكُّ ان الايام والليالي التي تُشبهها معدودة قليلة ، ليس عند العامة فقط بل في قصر المَلِك العظيم نفسه . فاذا كان الموت على ما ذُكر ، فانا مؤكد انه خيرٌ جزيل وما الزمان كله باطول من ليلة واحدة . واما ان كان الموت عُبوراً من ههنا الى دارٍ اخرى حيث يستقرُّ الاموات جميعاً كما يقال ، فاي خيرٍ يمكنه ان يكون اعظم منه ، ايها الرجال القضاة ؟ وان كان الراحل الى الجحيم[2] يتخلص

عبقريته تقريباً ! قد يحسب هذا القول جزافاً ، ولكن من يطالع يرَ . لا مذمّة على شيشرون اذا تتلمذ لنوابغ اليونان وتقبّل السادات منهم «وآثر الضلال في جانب افلاطون على الحقيقة في جانب غيره ! » فأدب اليونان سيّد الآداب ومؤدب جميعها غير انه مُليم حيث يقول في مطلع كتابه الثاني على العرافة « فلسوف يستغني الرومان عن اليونان في دراسة الفلسفة وسيقدَّر لهم ذلك يومَ يتاح لي ان اكمل ما في نفسي ! » فما أضعف الانسان وألصق المجد والادعاء في فِطرته ! .

(١) قول سقراط هذا يذكر بشعر ابي العلاء المعري :

ضجعة الموت رقدةٌ يستريح الـ　جسمُ فيها والعيش مثل السهاد !

(٢) لفظ الجحيم او أذيس وضع شامل للمساكن الابدية بعد الموت . فأسمى درجة الإليسيون ، واحطُّ دركة الطرطار . فكأن سقراط يختار حظَّ سعادته منذ الآن ، ان يكون جوّالاً في العالم الآخر ليتعرّف الى اهله ويجادلهم جميعاً ! . . .

من هؤلاء المدّعين القضاء ادّعاء ، ويُلفي ثمة القضاة الاحقاء ، اساطين العدل على ما يقال ، وهم مينوس ورَدَمنث وايكوس [١] وتَربطوليم [٢] وغيرهم من الجبارة الذين كانوا ذوي صلاح في حياتهم ، فهل يكون الارتحال عند ذاك رديئاً ؟ أوَيضنُّ احدكم بشيء لو أُتيح له ان يجتمع بأورفة [٣] وموسيوس وهزيود وهوميروس [٤] ؟ فان كانت هذه الامور حقيقيَّة فانا أودُّ ان اموت مراراً . فلا اشهى اليَّ من احاديث هاتيك الديار يومَ ألتقي بَلَمِذِيس [٥] وأياس [٦] بن تِلامون وغيرهم من الاقدمين الذين قضوا ضحية حكم جائر . ولسوف تتوافر بهجتي حين اقيس آلامي بآلامهم ، واعظم غبطتي ستكون في مساءلة ومباحثة سكان تلك الديار ،

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم ممن عاشوا بالصلاح وعمل البرّ على الارض ، فاقامهم الآلهة قضاة في الجحيم .

(٢) تَرَبطوليم يَعده اليونان مخترع المِحراث وناشر العلوم الزراعية .

(٣) اورفة بن افلُون مغنّي ثراقة فهو يمثِّل الموسيقى عند القدماء . يحكى ان الوحوش الضارية كانت تتألب حوله مستأنسة بغنائه ، وكان يجلس الى النهر يعزف فتقف الامواج لتطرب بايقاعه . وموسيوس هو تلميذه .

(٤) هزيود وهوميروس اقدما الشعراء ، وربَّا الميثولوجية اليونانية .

(٥) بَلَمِذيس بن نفليوس وكَلَمينة . يقال ان اوذيس وذيوميذ تخوَّناه برسالة فريام فرجمه الجنود بالحجارة .

(٦) أياس بن تِلامون ساءه ان الاغريق! فتنوا بفصاحة اوذيس فمنعوه اسلحة اخيل ، فسقط على سيفه فمات . وقد نسج سوفكليس من هذا موضوع مأساة من مآسيه .

كما كنت افعل هنا ، لأدرك مَن الحكيم بينهم ، ومن الذي يظنُّ نفسه حكيماً وليس بحكيم . فيا ايها الرجال القضاة ما الذي يَضَنُّ به المرء ليتسنّى له ان يمتحن ذاك الذي [1] زحف على طروادة بتلك الجيوش الضخمة ، اوذِيس [2] ، او سيسيف [3] وغيرهما ممن لا يأخذهم عدّ ، رجالاً ونساءً . ألا إن مباحثتهم والعيش معهم لهما السعادة التي تفوق كل سعادة ، وكفى بهم انهم لا يقتلون احداً من اجل هذا . ان سكان تلك الديار لهم اوفرُ سعادة من سكان عالمنا وان صحّ ما قيل فانهم خالدون مَدى الازمان .

مقطع الدفاع

اذن فأكبروا املكم بالموت ، ايها الرجال القضاة ، واعلموا علم اليقين انه لا يلحق الرجل الصدّيق من سوء في حياته ولا بعد مماته ، فلن تتخلى عنه الآلهة ، ولم يجر من اموري أمر بحكم القدر [4] بل قد

(١) هو اغاممنون زعيم زعماء الاغريق ، قتله بعد عودته من حرب طروادة أغِستوس وكلمنسترة .

(٢) أوذيس ملك جزر إيثاكة وداهية الاغريق ، ترك عياله وذهب الى حرب طروادة ، ولم يعد الى وطنه الا بعد جولات كثيرة ألّف منها هوميروس الاوذيسية .

(٣) سيسيف مؤسس كورنثس ، ملك كافر خبيث سارق . يذكره هنا سقراط لفطنته .

(٤) كتب شيشرون بهذا المعنى في نهاية « تسكلانيته » الاولى : « لا نعدنَّ شرًّا ما قد حدَّده سواء الآلهة الخالدون ام الطبيعة امُّ جميعنا . فانا لم نُخلق عَبَثاً او

اتضح انه خير لي ان اموت واتنصَّل من هموم الحيـاة [١] . لِذلك لم يصدني الوحي بتَّة ، وما انا بحاقد على شُكاتي ، ولا على الذين حكموا عليّ ، ولو انهم كانوا يشكونني وقد ابرزوا حكمهم فيَّ لا عطفاً علي ، بل قصدَ اذيتي ، فمن الحقّ ان اعاتبهم على هذا . ومهما يكن فـاني اتقدَّم اليهم بهذا الرجآء : فيا ايهـا الرجال ، اذا شبَّ بنيَّ وبدا منهم اهتمام بالاموال او غيرهـا ، اكثر من اهتمامهم بالفضيلة ، فـارهقوهم ارهاقي لكم وان تظـاهروا انهم شيء وكانوا لاشيء ، فقرّعوهم تقريعي لكم ، لانهم لا يهتمون لمـا يجب الاهتمام له ، ويظنون بنفوسهم خيراً وهم لا يجدرون بشيء . فاذا فعلتم هذا اكون قد نلتُ منكم انا وبنيَّ جزاءً عادلاً .

اتفاقاً ، غير ان قدرةً خلقتنا وتسهر على الجنس البشري ، وما كانت لتخلقنا ، وتحفظنا لكي تدفعنا ، بعد مقاساة النوائب جميعها ، الى موت يعقبه شرٌّ ابديّ . بل فلنحسبنَّ الموت ملجأً وميناء نأوي اليه . فمن لنا ان نجري اليه بقلوع منفرجة ! ولكن عبثاً تصدُّنا رياح معاكسة ، فلا بدَّ من الوصول ، وان تراخينا قليلاً . افمـا هو ضرورة للجميع ، يكون شرًّا لي انا وحدي ؟ »

(١) قال ابن سيراخ : « الموت افضل من الحياة المرَّة او السقم الملازم » (٣٠ ، ١٧) وقال ايضاً « ايها الموت ما اشدَّ مرارة ذكرك على الانسان المتقلّب في السلام فيما بين امواله ، على الرجل الذي لا تتجاذبه الهموم ، الموفّق في كل امر ، القادر على التلذّذ بالطعام . ايها الموت ، حسن قضاؤك للانسان المُعوز الضعيف القوّة ، الهرم ، الذي يتجاذبه كلُّ همٍّ ، القَنِط ، الفاقد الصَّبر . » (٤١ ، ١ — ٤)

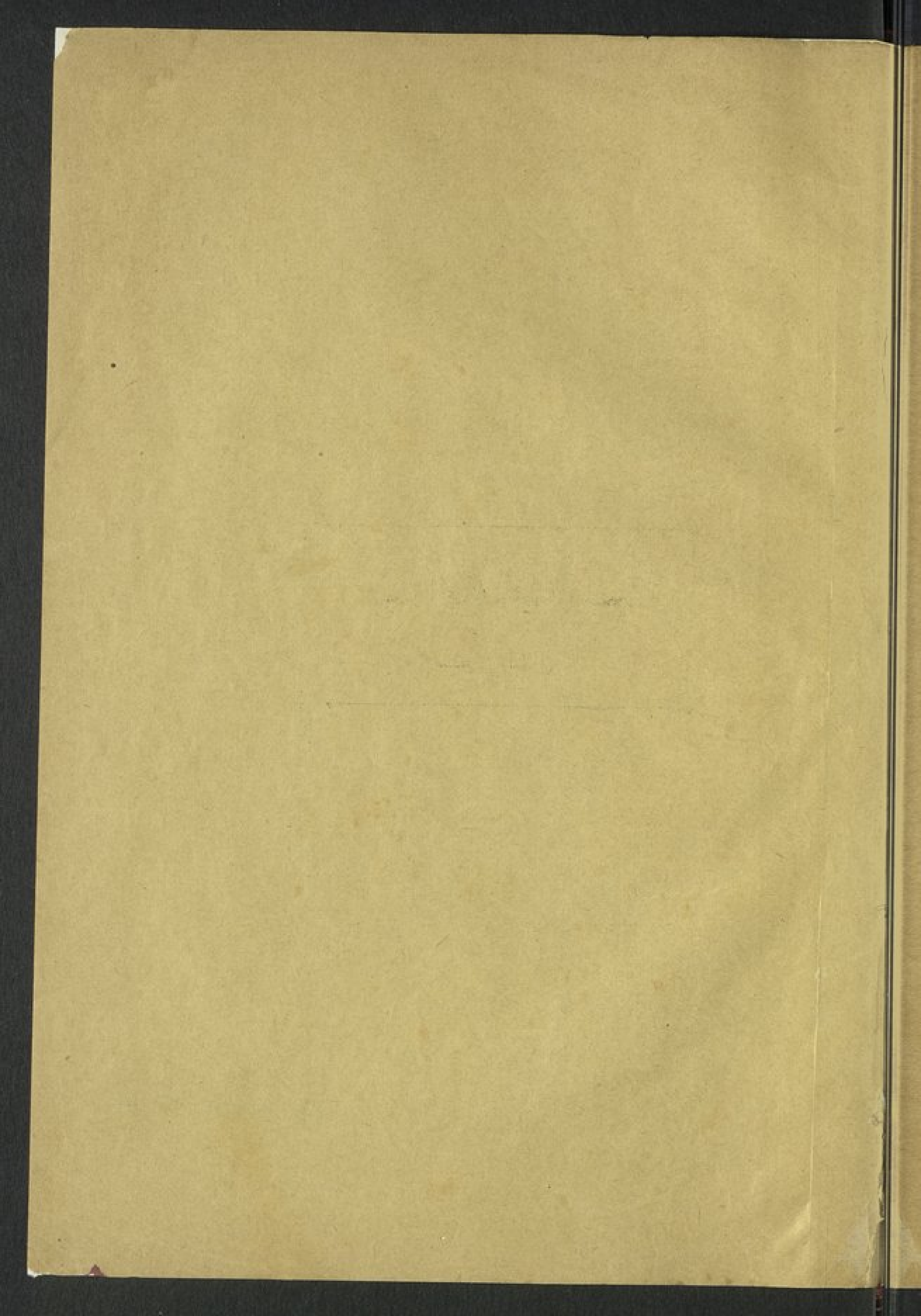
فلقد دنت ساعة الرحيل ، اما انا فالى الموت (*) ، واما انتم فالى الحياة : فحظ اينا أفضل ؟ لا احد يعلم إلا الله !

وكان الفراغ من تعريبه في ٢ آب سنة ١٩٣٨

(*) كتب احدهم تذييلاً على موت سقراط : « ان موت الصدّيق لسامٍ عظيم. ولكن اذا كان هذا الصدّيق مظلوماً ، وكان الضلال يقود الحقيقة الى العذاب ؛ وان كانت الفضيلة تقاسي عقاب الجريمة ؛ وكانت لا ملجأ لها في نزعها سوى الله ، ونفرٍ من الخُلّان يحدقون بها ؛ وان كانت مع ذلك سموحاً مع الحقد والعداوة ؛ وان كانت من اعماق سجنها المظلم حيث تحتضر تتطلع عيناها بطمأنينة نحو السماء ؛ وان كانت احاديثها احاديث سلام ووداد وتعزية للأحياء ، فعندئذٍ لا شيء اقوى منها في الطبيعة ! »

اصلاح غلط

غلط	صح	صفحة	سطر
آرائه	آراءه	٣	٠٥
انجليا	انجيليا	٣	٠٦
دَفاع	دِفاع	٣	٢٤
فجدّوا	فجدأ	٨	١٢
احدى عشر	احدى عشرة	٨	١٩
افربيد	اوربيد	٨	٢٠
والى ما	والامَ	١٧	٠٧
لمن	ممن	١٩	١٤
شيئا	شيئاً	٢١	٠١
الاليَّة	الألية	٢٣	٠٤
لا غاع	لا غانع	٣٢	١٥
هكتور	هكطور	٣٣	٠١
الأنثار	الاثثار	٣٣	٠٢
لقَعَلة	لقَعْلة	٣٤	٠٢
غِشَيان	غِشْيان	٣٤	١٣
فأنى	فإني	٣٧	٠٦
وشايتي	الوشاية بي	٤٢	٠٤
لمسائلة	لمساءلة	٤٤	١٣
بغيرهم كثيرين	بكثير غير هولاء	٤٧	٠٦
مماالتي	ممالأتي	٤٧	١٢



مطبعة الرهبانية المخلصية

صيدا – لبنان

